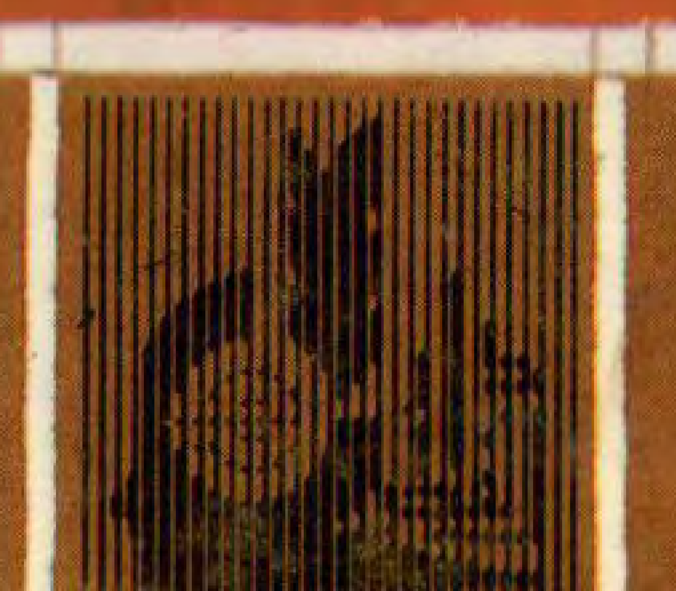
الدكتور شوقي أبو خليل

وادي المخازن

معركة الملوك الثلاثة - القصر الكبير

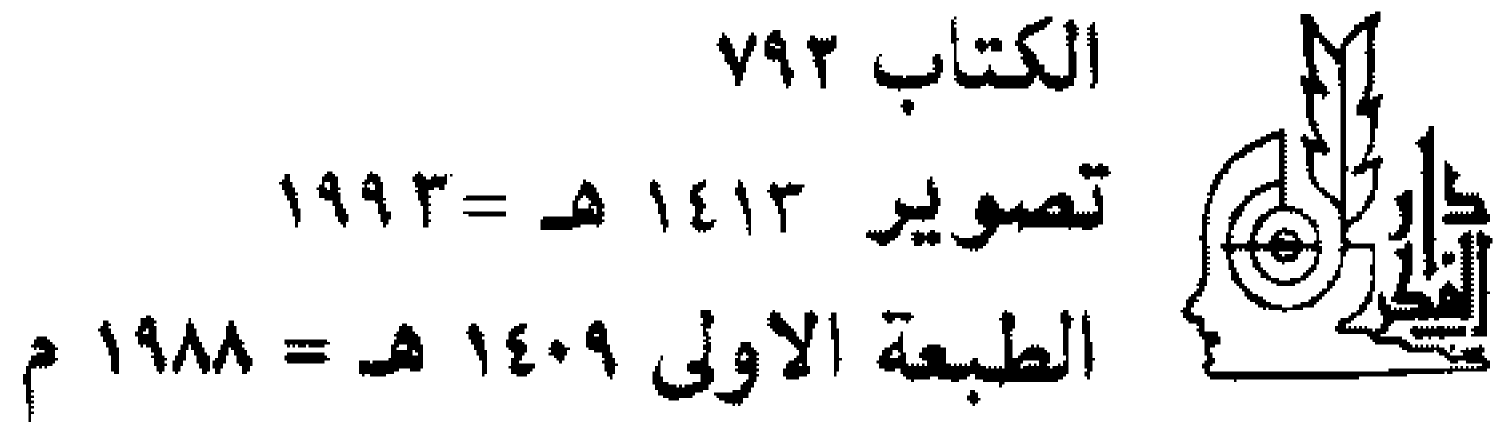
قاتلوهم حتى لا تكون فتنة

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان



دار الفكر
دمشق - سورية



الكتاب ٧٩٢
تصوير ١٤١٣ هـ =١٩٩٣
الطبعة الاولى ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٨ م

سورية ـ **دمشق** ـ شارع سعد الله الجابري ـ ص.ب (٩٦٢) ـ برقياً: فكر
س. ت ٢٧٥٤ هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ ـ تلكس FKR 411745 Sy

الصف التصويري: دار الفكر بدمشق



بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

تَصْدِيرٌ

☆ معركـة وادي المخـازن ، غـزوة صليبيَّـة أوربيَّـة جرت فـوق أرض عربيـة مغربيَّـة ، هـدّدت كيـان الأشراف السّعديين في الصّميم ، بقـاء أو فناء .

بسم الله ، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ، محمَّد بن عبد الله وآله وأصحابه ، وبعد :

شهد القرن الخامس عشر الميلادي ، حادثتين هامتين :

الأُولى : فتح القسطنطينية ؛ عاصمة الإمبراطوريَّة البيزنطية ، في ربيع الأوَّل سنة ٨٥٧ هـ / آذار (مارس) ١٤٥٣ م ،

والثَّانية : نهاية حرب الاسترداد في إسبانية ، بسقوط غَرْناطة في ربيع الأوَّل سنة ٨٩٧ هـ / كانون الثاني (يناير) ١٤٩٢ م ، وهذا يعني نهاية حكم المسلمين في الأندلس .

وشهد القرن السَّادس عشر الميلادي ، حادثتين هامتين :

الأُولى : ذروة الكشوف الجغرافية الأُوربية ، وتشكُّل الإمبراطوريات الاستعماريَّة ، وبدء التنافس الاستعماري .

والثانية : الصراع البحري الطَّويل بين العثمانيين ، والدُّول الأُوربيَّة على صفحة مياه البحر المتوسط .

وهذه الكشوف الجغرافيَّة الأُوربيَّة في حقيقتها ، امتداد للحروب الصَّليبيَّة ، وهي في جوهرها حركة تبشيريَّة ، واستمرار لمحاكم التفتيش ؛ لذلك اتَّصفت بضخامة الحشد ، واتَّسمت بدقة التنظيم والإعداد ، لغزو الإسلام في أيِّ بقعة من بقاع الأرض ، واحتلَّ البرتغاليون سبتة ١٤١٥ م ، فأغراهم ذلك باحتلال المغرب العربي كلِّه ؛ لينفذوا من خلاله إلى الصحراء الكبرى بسهولة ، وبالتَّالي إلى قلب القارة الإفريقية البكر .

ولتحقيق هذه الآمال ، حشدت أُوربة برعاية الفاتيكان جيشاً ، ضمَّ البرتغالي والإسباني والألماني والإيطالي ، وسار بقيادة ملك البرتغال الشَّاب (دون سِبَستيان) ، ونزل على الأرض المغربيَّة ، واتَّجه إلى نهر وادي المخازن قرب القصر الكبير ، يحمل صليباً ، يريد رفعه فوق أرض اصطبغت بالعروبة والإسلام إلى الأبد ، منذ موسى وطارق ، وحسَّان وعقبة .

جاء الأُوربيُّون ، ونفوسهم شحنت حقداً ، وقلوبهم ملئت تعصُّباً ، يرون أن السَّماء لن تفتح أبوابها إلاَّ لمن آمن بيسوع ربّاً مصلوباً .

وعلى الرَّغم من أن المغاربة المسلمين واجهوا في معركة وادي المخازن ، أعظم إمبراطوريَّة على وجه الأرض بلا منازع آنذاك ، مع دعم أُوربي كبير ، كان النَّصر الحاسم إلى جانبهم ، فوضعوا بذلك حدّاً فاصلاً لأطماع أُوربة الصَّليبيَّة بديار الإسلام ، وأوقفوا موجات الزَّحف الصَّليبي .

لقد خاض السُّلطان المغربي أبو مروان عبد الملك المعتصم بالله السَّعدي ، وأخوه أبو العباس أحمد المنصور الذَّهبي معركة غير مرتجلة ، معركة خُطِّط لها بدقَّة وإتقان ، وعلم وخبرة وكفاية .

(وادي المخازن) : معركة خطَّط لها وهيَّأ ميدانها بحنكة ، عبد الملك المعتصم بالله .

وخاض غمارها ببطولة وتصميم أبو العباس أحمد المنصور الذَّهبي .

ونظَّم مدفعيتها الَّتي كانت لها فعاليتها الكبرى ، القائد التُّركي رضوان .

وقدَّم لها الشحنة الرُّوحيَّة ، أبو المحاسن يوسف الفاسي ، شيخ الشَّاذليَّة الجزوليَّة ، فارتفعت المعنويات ، ورخصت الأنفس في سبيل الله ، خصوصاً وأن المغاربة ذاقوا حلاوة الانتصار على أعدائهم المحتلين لشواطئهم ؛ عندما انتزعوا منهم ثغوراً كانت محاطة بسياج من

الأسوار العالية ، والخنادق العميقة ، والحصون المنيعة .

ومن هنا جاءت أهميَّة معركة وادي المخازن ، إنَّها غزوة صليبيَّة جرت فوق أرض عربيَّة مغربيَّة ، وهذا يدل على خطورة نتائجها ، فهي تهدِّد كيان الدَّولة في الصَّميم ، بقاء أو فناء .

وفي هذا الجزء من المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام سنعرض ما يلي :

الإمبراطورية البرتغاليَّة : قيامها ، كشوفها .. حتى وصول دون سبستيان إلى عرشها .

الأشراف السَّعديون : سلاطين المغرب العربي ، الَّذين وقع على كاهلهم عبء مواجهة توسع البرتغاليين والإسبان .

معركة نهر وادي المخازن (القصر الكبير ، معركة الملوك الثلاثة) : الاستعدادات ، الأحداث ، النتائج .

مع مصادر ومراجع هذا الجزء ، وإن كنا اعتمدنا بصورة أساسية على كتاب : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، للسَّلاوي .

وبعد الخاتمة بعض الوثائق الهامَّة عن وادي المخازن ، نشرت في (دعوة الحق) ، وسيلمس القارئ غنى هذا الجزء بالمصورات الموضِّحة للأحداث .

وهكذا .. لقد أثبت السَّعديون في وادي المخازن ، أنَّه لا انتصار في ميدان القتال ، إلاَّ بعد انتصارات تسبقه في ميادين ثلاثة :

انتصار في ميدان التَّصنيع والتَّقدُّم العلمي ، فكانت مدافع السَّعديين وأسلحتهم في المعركة من مصانعهم ومنشآتهم العسكرية .

وانتصار في ميدان المساواة والإخاء والمحبَّة ، لذلك تميَّزت دولة السَّعديين بقضاء حازم عادل ، ونظام بديع لديوان المظالم .

وانتصار في ميدان تلاحم السُّلطة مع الشَّعب ، فكانت نعم السُّلطة القائدة ؛ من حيث الإعداد والأسوة والقدوة ، ونعم الشَّعب المجاهد الذي لبّى بكل طاقاته الرُّوحيَّة والماديَّة لدفع الخطر عن وجوده ، عن أرضه ودينه .

هذا ما سنراه في هذا الجزء من المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام ، سائلين الله النفع والعبرة ، وإحياء جوانب من تاريخنا العربي الإسلامي المجيد .

والحمد لله أوَّلاً وآخراً ، فهو من وراء القصد .

دمشق في : ٢٠ شوّال ١٤٠٨ هـ
الموافق : ٥ حزيران ١٩٨٨ م

شَوقي أَبو خَليل

مَمْلَكَةُ البرتغال

☆ في الوقت الّذي ضعفت فيه الرُّوح الصّليبيّة في كلّ أوربة ، فإنّها أخذت تنتعش بالبرتغال .

أعلن ألفونسو السَّادس ملك قشتالة الحرب على طليطلة سنة ٤٧٢ هـ = ١٠٧٩ م ، وكان سقوطها في السَّابع والعشرين من المحرَّم سنة ٤٧٨ هـ / الخامس والعشرين من أيار (مايو) سنة ١٠٨٥ م نتيجة طبيعيَّة للخصومة والتَّناحر والتَّطاحن بين ملوك الطَّوائف ، ودخلت طليطلة بذلك إلى حظيرة النَّصرانيَّة بعد أن حكمها المسلمون ثلاث مئة واثنين وسبعين عاماً ، واتخذها ألفونسو السَّادس حاضرة ملكه من ذلك التَّاريخ ، وغدت بذلك عاصمة إسبانية النَّصرانيَّة(١) .

وعلى يد ألفونسو السَّادس بدأت تظهر مملكة البرتغال(٢) على

---

(١) الزّلاّقة ـ من هذه السّلسلة ـ ص ١٨

(٢) البرتغال مأخوذة من Purtus Cale ، وهو الميناء الواقع عند مصبّ نهر دويرة Douro ، قامت سنة ١١٠٩ م ، وبقيت ملكيّة حتّى ٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٠ م ، مساحتها ٩١,٥٣٠ كم٢ ، متوسّط عرضها ١٦١ كم ، طولها من الشمال إلى الجنوب ٥٩٣ كم ، وعدد سكانها اليوم عشرة ملايين نسمة .

خشبة المسرح الدّولي ، خلال الصّراع الّذي خاضه ملوك الطّوائف ضد الإسبان ، عندما قدّم لابنته تيريزا[1] ، وزوجها الأمير هنري دي لورنيا ، من أُسرة بوركونيا بعض الأراضي في البرتغال مكافأة له على حسن بلائه ، ونظير ماقد يطلبه منه من المساعدات العسكرية عند الحاجة ، كما وعده بمنحه كل شبر من أرض البرتغال ينتزعه من المسلمين ليحتفظ به لنفسه .

وما أن وافت سنة ١١٠٩ م حتى اكتسح الأمير هنري البقيّة الباقية من أراضي البرتغال ، ولكن المنيّة عاجلته بعد ثلاث سنوات ، تاركاً وراءه ولي عهد لم يدرج بعد من حجر أُمّه الّتي اعتلت عرش المملكة منفردة بالوصاية على ابنها الطفل إلى أن يبلغ سِنّ الرُّشد ، وهكذا جلست على عرش البرتغال امرأة قبل أن يجلس عليه ملك[2] ، ولقد انقضت ثلاثة وعشرون عاماً من ذلك التّاريخ قبل أن يعتلي ابنها العرش باسم ألفونسو الأوّل .

خاض ألفونسو الأوّل معارك عديدة ضدّ المسلمين في غربي الأندلس ، كان النّصر فيها حليفه ، أمّا في البحر ، فلم يحقّق أُسطوله انتصارات إلا بمؤازرة أساطيل صليبيّة كانت في طريقها إلى بيت

---

(١) ابنته من خليلته : كينا نونيز .

(٢) في طلب التّوابل ، ص ٨٢

المقدس ، فشرع من وقته في بناء السُّفن ، وحشد لها بحارة مرتزقة .

ولعلَّ متاخمة البرتغال للمحيط الأطلسي[1] ـ غرباً وجنوباً ـ كان الباعث الأساسي ـ لمن تعاقب بعد ألفونسو الأوَّل ـ على عدم إغفال ماللبرتغال من الحاجة إلى أُسطول قوي ، فساهم كلٌّ منهم بدوره في سبيل التَّمهيد لإنشاء الأُسطول ، واستكمال قطعه تحقيقاً لأهداف منشودة .

ولتشجيع النَّاس على بناء السُّفن ، أمر الملك بأن كلَّ من يرغب في بناء سفينة لا تقلُّ حمولتها عن مئة طن يعطى الأخشاب اللاَّزمة لبنائها من الغابات الملكيَّة دون مقابل ، مع إعفائه من الضَّرائب الجمركيَّة على المواد المستوردة من الخارج ، والَّتي لا غنى عنها في بناء هذه السُّفن ، مثل الحديد والقطران ، وما إلى ذلك ، وأُعفي كذلك من ضريبة التَّسجيل وانتقال الملكيَّة كلّ من يشتري سفينة من الخارج ، وزيادة على هذا كلِّه أُعفيت من الضريبة المترتِّبة على التصدير ، كلُّ سفينة جديدة تقوم برحلتها الأُولى ، ومُدَّ سريان هذا الإعفاء لثلاث سنوات ، لكلٍّ من فُقِدَت سفينته إبان رحلتها الأُولى[2] .

---

(١) انظر المصور ، ص ١٨

(٢) في طلب التَّوابل ، ص ٨٣

وبعد ألفونسو الثَّالث ـ الَّذي احتلَّ مقاطعة الغرب في جنوبي البرتغال متمِّماً بذلك حرب الاسترداد «La Recoquisto» ـ جاء سنة ١٢٧٩ م الملك دينيز Diniz ، وخلفه سنة ١٣٢٥ م ابنه ألفونسو الرَّابع ـ الملقَّب بالشُّجاع ـ ، وكان آخر ملك من أسرة بوركونيا فرناندو الأوَّل سنة ١٣٨٣ م .

وعقب فترة اضطراب وصراع على السُّلطة ، جاءت أسرة (أبيس) إلى الحكم ، وكان أوَّل ملوكها سنة ١٣٨٥ م يوحنا الأوَّل Joan I ، الَّذي تمَّت في عهده الكشوف الجغرافيَّة الأُولى ، فبعيد تتويجه بقليل قدم عليه الإنكليزي [جون أوف جونت Gohn of Gaunt] دوق لانكاستر ، عن طريق البحر ، مصطحباً زوجه وابنتيه وجيشاً ، يلتمس مساعدة الملك الفتى في الحرب الَّتي يزمع شنَّها على قشتالة بغية الحصول على عرش هذه المملكة لزوجه الَّتي هي بنت ملك قشتالة ، أو لابنتها (كاترين) إذا لم يوفَّق في الحصول عليه لزوجه . وفي مقابل هذه المساعدة ، دعى الملك جون الأوَّل بالتَّخلي له عن بعض مدن الحدود الإسبانيَّة ، وأن يزوجه من إحدى ابنتيه ، ولكن الملك هام حباً بفيليبا Philippa ابنة الدُّوق من زوج سابقة ، وتزوجها ، فقال النَّاس بهذا الزَّواج : « لقد قرنت العبقرية التِّجاريَّة الإنكليزية ، إلى البطولة القوميَّة البرتغاليَّة »[1] ، فأنجبت له خمسة أولاد ذكور

(١) في طلب التَّوابل ، ص ٨٤

وأنثيين ، سمّت المولود الثالث (سنة ١٣٩٩ م) هنريكس ، وهو الّذي خلّده التّاريخ تحت اسم الأمير (هنري الملاح) .

ولما بلغ أبناء الملك أشدهم رغب في أن يغنموا لأنفسهم أكاليل المجد في ميدان الفروسيّة ، ولكن مملكته كانت في حالة سلم مع الممالك الأُخرى ، فليس ثمَّة ميدان قتال يظهرون فيه مواهبهم وبسالتهم ، فاهتدى إلى إقامة مباريات استعراضيَّة للفروسيَّة ، تستمر عاماً كاملاً ، يدعو إليها الفرسان من جميع أرجاء مملكته للاشتراك فيها ، ولكن الفكرة لم تَرُق لأبنائه ، ولا لوزير ماليَّته ؛ لما سوف يترتَّب على إقامة هذه المباريات لمثل هذه المدَّة الطَّويلة ، والاحتفاء بالمدعوِّين إليها من إرهاق للخزانة العامَّة ، واستنفاد لإيرادات الدَّولة ، فقال الوزير للملك :

« إن مثل هذه المباريات قد تليق بأبناء التُّجار الَّذين يتطلَّعون إلى وسام أو رتبة شرف يُمْنَحُونَها ، ولكنها لا تليق بأبناء الملوك ، فلم لا تغزو سبتة ؟ »[1] .

ارتاح الملك لاقتراح وزيره ، خصوصاً وأن حملته ستكون أوَّل حملة ضد المغاربة المسلمين في بلادهم ، واغتبط الأُمراء للفكرة ، فَشُرع في اتخاذ العدَّة فوراً ، وأرسل ملك البرتغال إلى ملكي قشتالة وغَرْناطة

(١) في طلب التّوابل ، ص ٨٥

يهدِّئ من روعهما مؤكِّداً لهما بأنَّه إنما يعتزم غزو سبتة ، ليتيح لأبنائه فرصة إحراز شرف الفروسيَّة في ميدان القتال ، لا أكثر ولا أقل .
فأقلع يوحنا الأوَّل يقود مئتين واثنتين وأربعين سفينة ، أقلعت من لشبونة هدفه تحقيق أوَّل هجوم توسُّعي برتغالي ، مع استمرارية حرب المسلمين أينما وجدوا ، فاتَّجه إلى المغرب ، ونحو سبتة بالذات ، لأنَّها المرسى الَّذي أقلعت منه سفن المسلمين لفتح الأندلس أيام طارق بن زياد ، والمرسى الذي لا يزال تقلع منه قوات المدد الَّذي كان المغرب يوجهها لإعانة مسلمي الأندلس أيام المرابطين والموحِّدين وبني مَرين[1] .

وتمَّ احتلال سبتة يوم الخميس ١٥ جمادى الآخرة سنة ٨١٨ هـ / ٢١ آب (أغسطس) سنة ١٤١٥ م ، ومن ذلك اليوم لم تعد مغربيّة عربيَّة إلى يومنا هذا ، واحتلال سبتة حادث عظيم خطير[2] ، تبعه

(١) يذكر محمد بن القاسم بن عبد الملك الأنصاري السّبتي في كتابه (اختصار الأخبار عمّا كان بثغر سبتة من سني الآثار) ص ٢٧ ـ ٣٣ : أنه كان بسبتة ألف مسجد ، وأن عدد الخزائن العلمية (المكتبات) بها اثنتان وستون خزانة ، وأن عدد الروابط والزوايا سبع وأربعون مابين زاوية ورابطة ، أما محارس المدينة فعددها ثمانية عشر محرساً تمتد إلى اثني عشر ميلاً من خارجها من ناحية البحر .. وكان بسبتة اثنان وعشرون حماماً ، ومئة وأربعة وسبعون سوقاً ، أما المنجرات المُعَدَّة لعمل القسيِّ فعددها أربعون مَنْجرة ، ولما كانت سبتة ميناء تجارياً يقصده التجار الأغراب ، فإنها احتوت على نيِّفٍ وثلاث مئة فندق لخزن الحبوب وإيواء المسافرين .

(٢) ومما يذكر أن المبشر الميورقي رامون لل Lull قدَّم لمؤتمر فيين Vienne بفرنسة في عام ١٣١٠ م ـ أي قبل أكثر من قرن من غزو البرتغاليين سبتة ـ اقتراحاً بتشكيل منظمة تضمّ =

هجمات برتغاليــة على كلّ الشـواطئ المغربيــة ، ومن ثمّ على الخليـج العربي شرقــاً ، يقـول الضّـابـط البرتغـالي فـاسكـو كاربـالـو[1] Vasco Carbalo : « وكان شبـاب البرتغـال يتحرّقـون على القتـال ، ولكن ضدّ من ؟ أين يجدون العدو ؟ إذ إننا من جهـة عقـدنـا الصلح مع قشتالة ، ومن جهة أخرى يواجهنا البحر ، ولكن بمقتضى تقاليدنـا وديننا ومصلحتنا ، فإن العدو لا يزال هو المسلم ، فـإذا كان قـد التجـأ إلى ماوراء البحار ، فيجب أن نذهب للبحث عليـه هنـاك ، يجب أن نطارد الوحش في مكمنه » .

وقال : « وهكذا .. في الوقت الّذي ضعفت فيه الروح الصّليبيّـة في كلّ أُوربة ، فإنّها أخذت تنتعش بالبرتغال » .

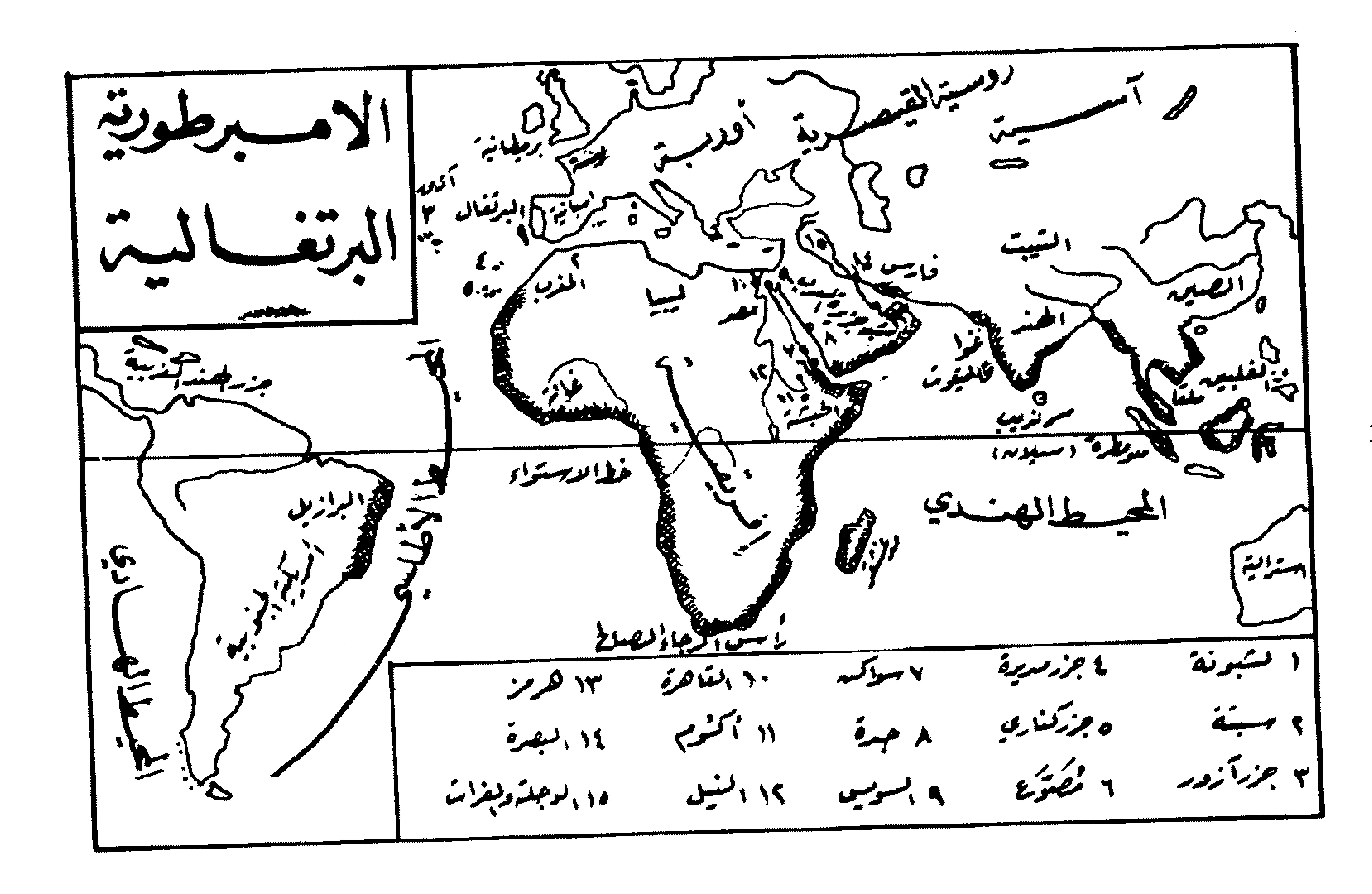
وكان من نتائج إقامـة الجيش البرتغـالي على أرض إفريقيـة ، أن تغيرت آراء الأسرة الحاكمة في لشبونـة تغيّراً جـذريـاً ، لم تكن لتخطر على بال ، ففي سبتة زرعت أوّل بذرة لسياسـة الاستعمار البرتغـاليـة ،

= فرسان النّصارى كافّة وعليها أن تعمل دون انقطـاع لاحتلال الأراضي المقدّسـة (فلسطين) ويكـون أوّل مهـامهـا احتـلال سبتـة والقسطنطينيـة لاتخـاذهمـا قـاعـدتين لشن الهجمات ضـدّ المسلمين ، انظر :

Allison Peers, Roman Lull: A Biography, London 1929 P.351

(١) دعوة الحق ، عن :

Vesco Carbalo, La Domination Portuguese au Maroc Lisbonne 1936 P.17



الامبراطورية البرتغالية
روسية القيصرية
آسية
أوربة
بريطانية
إسبانية
البرتغال
المغرب
ليبيا
مصر
فارس
التبيت
الصين
الهند
غوا
كاليكوت
الفلبين
ملقا
سومطرة
سيلان
خط الاستواء
المحيط الهندي
المحيط الأطلسي
المحيط الهادي
البرازيل
أمريكا الجنوبية
جزر الهند الغربية
رأس الرجاء الصالح
استرالية
١ لشبونة
٢ سبتة
٣ جزر آزور
٤ جزر مديرة
٥ جزر كناري
٦ مقديشو
٧ سواكن
٨ جدة
٩ السويس
١٠ القاهرة
١١ أكسوم
١٢ النيل
١٣ هرمز
١٤ البصرة
١٥ الدجلة والفرات

الّتي لم يكن ليحلم بها أحد حتّى ذلك الحين ، والّتي تفرّغ لها تماماً هنري (الذي لُقِّب بالْمَلاَّح) فاستبدَّت به رغبة ملحَّة لاستكشاف مجاهل إفريقية التي يكتنفها الغموض بالنسبة للبرتغاليين والأُوربيين عموماً ، ولم يكن ثَمَّة مايحول بينه وبين رغبته أو يثنيه عن عزمه شيء ، خصوصاً وقد سمع في سبتة عن المناجم الغنيَّة بالذَّهب ، والّتي يقال إنّها توجد في غانة ، وما يجنيه التُّجار في جنوبي موريتانية من ربح وغنم وفير .

كما سمع في سبتة أيضاً أن ملك الحبشة يدين بالمسيحيَّة ، وأن الحبشة تقع في إفريقية .

وما أن عاد الملك إلى البرتغال حتّى عيَّن هنري حاكماً لسبتة ، كما أسند إليه تصريف الشُّؤون الّتي تتعلّق بإفريقية ، وبعد ذلك بزمن قصير عيَّنه في منصب الأستاذ الأعظم لجماعة المسيح ، الّتي تأسَّست عام ١٣١٩ م عقب حلّ جمعية الفرسان الدّاوية Templars ، وكان كثير من أعضائها قد التجؤوا إلى البرتغال ، حيث بسط عليهم الملك حمايته ، وكان الفوز بعضويتها يعتبر شرفاً عظيماً ، أما الغاية الّتي كانت تستهدفها فهي مواصلة محاربة المسلمين[١] .

عكف هنري على دراسة المصورات والرُّسومات ؛ ليقف على كلّ

---

(١) في طلب التّوابل ، ص ٨٨

ما كان معروفاً لأهل عصره ، مستفيداً من إنجازات المسلمين الحضاريَّة خصوصاً في الفلك ، والملاحة البحريَّة ، ورسم المصوَّرات الجغرافية ، واستخدام البوصلة والإسطرلاب .. ومن خريطة تحمل اسم « خريطة قطالونا » تعرَّف على جزر الآزور ، وبعض جزر الكناري ، وغانة ، وعرف أن ملكها أعظم ملوك هذه الجهات وأغناهم ؛ لكثرة ما يملكه من الذَّهب ، وعرف أيضاً قرب الهند من مضيق هرمز ، حيث التَّوابل والأحجار الكريمة ، وهكذا .. أبحرت السُّفن ناشرة أشرعتها ، حاملة إلى شعوب إفريقية جماعة من الرُّهبان ، يبشِّرون بالعهد الجديد ، ويعودون منها بكنوزها من الذَّهب والعاج والفلفل ..

بدأت الكشوف البرتغالية سنة ١٤١٨ م ، وجاءت النتائج الأُولى غير مشجعة ، ولكن عزم الأمير هنري لم يضعف ، ولم يتسرَّب إليه وهن أو خور ، فمضى بتنفيذ مشروع مغامراته البحريَّة ؛ لأنَّه كان يأمل أن يجد في ملك الحبشة (القس يوحنا) حليفاً له في مقاتلة المسلمين ، مع الوقوف على مدى قوة المسلمين في إفريقية ، والبحث في تلك الأنحاء عن أمراء مسيحيين ، يمكن الاستعانة بهم - بدافع من محبتهم للمسيح - على إبادة أعداء المسيحيَّة ، ورغبة في حمل الأهالي على اعتناق الدين المسيحي ، « فالوثني يمكن كسبه وتحويله إلى المسيحية ، أمَّا المسلم فيجب أن يقهر ثم يقتل »[1] . خصوصاً وقد

---

(١) في طلب التوابل ص ١٠٣/١٠٤

وهب البابا مارتن الخامس[1] التَّاجَ البرتغالي كلَّ الممالك الَّتي يستكشفها « ثم أمعن البابا في الكرم والسَّخاء ، فأحلَّ من الأوزار والخطايا أرواحَ من يلقون حتفهم في تلك المغامرات من أعوانه وأجناده »[2] ، معطياً الكشوف طابع الحروب الصَّليبيَّة الصريح .

أمَّا المغانم المادِّيَّة ـ كالذهب وتجارة الرقيق ـ فقد كانت كبيرة جداً ، وكانت أوَّل شحنة كبيرة من الرَّقيق سنة ١٤٤٤ م ، قوامها ٢٥٣ رقيقاً و « القلب يتفطَّر من الخزي للمناظر البشعة الَّتي تُمثّل على مسرح الألم والحسرة ، من تمزيق شمل الأسرة ، وفصل أفرادها الواحد عن الآخر ، يُكتب في تفجُّع بقلم الواقف على أسرار النَّفس البشريَّة ، وما يختلج فيها من شعور الكمد ، وهو لم يزل في طور طفولة الزَّمن ، ولكنه يسرح النَّظر فيما وراء العذاب الوقتي إلى الخلاص الأبدي الَّذي أصبح لأولئك الَّذين سماهم (بأبناء آدم السُّود) »[3] .

توفي هنري الملاَّح سنة ١٤٦٣ م ، مع أنَّه لم يبحر إلى أبعد من ساحل المغرب الشَّمالي ، إلا أنَّه كان القوَّة الدَّافعة الحافزة لهذه المغامرات .

وتابع البرتغاليون كشوفاتهم ، فاجتازوا خط الاستواء لأوَّل مرَّة سنة ١٤٧١ م ، بعد ثلاث وخمسين سنة من خوضهم مياه الأطلسي .

---

(١) البابا مرتينُس (مارتن) الخامس : [١٤١٧ ـ ١٤٣١ م] ، وهو البابا الخامس بعد المئتين .

(٢) في طلب التَّوابل ، ص ١٠٦

(٣) في طلب التَّوابل ، ص ١٠٤

ولما اعتلى الملك يوحنا الثّاني عرش البرتغال [١٤٨١ - ١٤٩٥ م] ، أرسل برثولوميودياز[١] بسفينتَيْن حمولة كلٍّ منهما خمسون طناً ، وثالثة أصغر منهما لحمل مؤونة ثلاثة أعوام ، والهدف : الدوران حول طرف القارة الإفريقية الجنوبي .

وقرر الملك مانويل الأوّل [١٤٩٥ - ١٥٢١ م] القضاء على سيطرة الدّول العربيّة التّجاريّة عن طريق احتلال عدن وهرمز ، فسيَّر فاسكو دو غاما[٢] سنة ١٤٩٧ م ، بعد أن قال في وداعه : « هذه المغامرة النبيلة ، والمنافع الّتي تُرجى من ورائها مرضاة الله .. فما هو إلا أن تفتح الهند ، حتّى تبلِّغ رسالة سيدنا وإلهنا يسوع إلى أولئك الّذين لا يعلمون عنه شيئاً » ، على أن تبليغ الرّسالة المسيحيّة

---

(١) وفي إسبانية ، كان خريستفر كولومبس يتحرّق لهفة للوصول إلى الهند ، علّه يصيب من الذّهب ما يكفل نفقات تجريد حملة صليبيّة جديدة ، فقد كان كولومبس في المعسكر الإسباني في أثناء المعركة ، وشاهد بنفسه تسليم غَرْناطة سنة ١٤٩٢ م ، وفي ٣٠ نيسان (أبريل) ١٤٩٢ م وقّع الملك فردينانـد ، والملكة إيزابيلا أمر التّكليف باكتشاف طريق للهند عبر الأطلسي (غرباً) ، وتحاشياً للخلافات بين إسبانية والبرتغال وقّع الطرفان اتفاقية توردیسیلاس Tordesillas حسب أوامر البابوات ، حدّدت هذه الاتفاقية خطاً وهمياً يقع على مسافة مئة فرسخ إلى غرب جزائر آزور ، فجميع الأراضي الّتي تقع شرقي هذا الحدّ تعتبر ممتلكات البرتغال ، وجميع الأراضي الّتي تقع غربيّه ممتلكات إسبانية . ومما يذكر أن مندوبي الدولتين بينما كانوا يتنزهون ، إذ استوقفهم صبي صغير على جسر ، ثمّ رفع إليهم بصره في شيء من السّخرية متسائلاً ، وعلى وجهه ابتسامة عريضة : أأنتم الرّجال القائمون بتقسيم العالم ؟!

(٢) Vasco de Gama [١٤٦٩ - ١٥٢٤] ، وصل إلى الهند بمساعدة شهاب الدين أحمد بن ماجد ، الذي سرعان ماندم عندما عرف هدف وأخلاق هؤلاء البرتغاليين .


ـ وإن كان هدف الملك الأوَّل ـ إلاَّ أن ذلك لم يمنعه من توصية قوَّاده بضرورة البحث في الوقت نفسه عن أحسن الوسائل وأصلحها للحصول على ثروة الشَّرق ، وشرح الملك بمنتهى الوضوح كيف أن الجمهوريات الإيطالية إنَّما تدين بعظمتها وغناها لتجارة التَّوابل .

وما أن فرغ الملك من خطابه ، حتَّى تقدَّم أحد كبار رجال الحاشية وهو يحمل لواء جماعة المسيح ، فسلَّمه إلى فاسكو دو غاما ، الَّذي تناوله ولفَّه حول ذراعه ، ثم نطق بهذا القسم : « أنا فاسكو دو غاما المكلَّف من مليكي باكتشاف بحار الشَّرق ، وبلاد الهند الشَّرقيَّة ، أقسم برمز هذا الصَّليب الَّذي أضع يدي عليه ، بأن أرفعه عالياً مطوياً أو منشوراً في سبيل خدمة الله وخدمتكم أينما حللت ، سواء في بلاد المغرب ، أو في بلاد الشُّعوب الأخرى من أي جنس ولون ، وأُقسم أنني سأُدافع عنه حتَّى الموت ، لا تمنعني عن ذلك الأخطار ، مهما يكن مبلغها ، وأينما كانت في البحر أو البر ، ومهما أُصلى بنار الحروب ، وإنني سأصدع بجميع الأوامر الصادرة إلي ، وأطيع جميع التَّعليمات في جميع الظروف »[1] .


وتسلَّم دو غاما من مليكه رسالة موجَّهة إلى (القس يوحنا)

---

(١) في طلب التَّوابل ، ص ١٨٠ ، وجاء في تحفة المجاهدين في أخبار البرتغاليين ، ص ٢٤٦ ، قال عمانويل الأوَّل : « إن الغرض من اكتشاف الطريق البحري إلى الهند هو نشر المسيحيَّة والحصول على ثروات الشَّرق » .



فتوحات العرب
تحت ظلال الإسلام
في أوروبا
ألمانيا
النمسا
البحر
التيراني
البحر المتوسط
تونس
صقلية
سردينيا
جاليابي
بلرمو
رجيو
برنديزي
تارانت
البندقية
نهر البو
فلورنسا
جنوة
تورينو
سويسرا
٨٧٠/٨٤٦/٨٠٩
٨٤٢
٨٢٤
٩٢٤
١٠١٥
٨٨٢
٨٨٣
٨٣٦
٨٣٨
٨٤٠
٩٢٦



فتوحات طارق وموسى
فتوحات عبد الرحمن الغافقي
فتوحات السمح بن مالك
فتوحات عنبسة بن سحيم
فتوحات القرنين التاسع والعاشر
فتوحات العثمانيين
فتوحات الأغالبة
فتوحات مجاهد العامري
الغزوات على شواطئ إيطاليا
٩٢
سنوات الهجوم بعضها (بالهجرة)
حدود الدول الأوروبية حالياً
مناطق إيطالية وصلوها
ط الأطلسي
بحر الظلمات
خليج غسقونية
كوفادونجا
بيونة
أستورقة
أوبورتو
أماية
سرقسطة
لشبونة
طليطلة
ماردة
قرطبة
إشبيلية
غرناطة
المرية
مرسية
قرطاجنة
٢٠٠/٢٣١/٢٩٠
١٠٥ هـ بلنسية
البليار
٩٢ هـ
مالقة
الجزيرة الخضراء
مضيق جبل طارق
سبتة
طنجة
المغرب الأقصى
كيلومتر
٠
١٠٠
٢٠٠
٤٠٠
٦٠٠
٨٠٠
٥٠
١٥٠

ملك الحبشة ، وقضى وبحارتـه طوال الليل يصلُّون لله ويضرعون إليـه في كنيسـة بنـاهـا الأمير هنري الملاح للبحـارة خـاصـة ، ورتّل رئيس القسس « قدّاس الاعتراف العام » ، ثم نطق بالمغفرة وفقاً للعهـد الّـذي قطعه البـابـا على نفسـه للأمير هنري الملاح ، بـأن يمنحهـا كلَّ أولئـك الّـذين هلكوا أو قتلوا في الفتـوح ، أو في الكشف عن البـلاد النـائيـة السَّحيقة ، وأن يعتبروا من الوجهة الرُّوحية كما لو كانوا من بين رجـال الحروب الصَّليبيَّة ، وأن يمنحوا مثل مامنحوا من الغفران .

وبعـد ثلاثـة وتسعين يـومـاً ، دار دو غـامـا حـول رأس الرجـاء الصالح ، ثم وصل إلى الهند ، فنزل مدينة قاليقوت ، وعقد مع حاكمها معاهدة تجارية ، وحُمِّلَت سفنه بالبضائع الهندية ، وعاد إلى البرتغـال بعد غياب سنتين .

ولقـد ظهرت قسـوة البرتغـاليين ووحشيتهم وتعصبهم منـذ أوَّل يوم نزلـوا فيـه أراضي إفريقيـة وآسيـة ، لقـد أحرق دو غـامـا مركبـاً للحجاج يحمل مئات الرجال والنسـاء والأطفـال ، دون أن يستجيب إلى توسل النِّساء إليه ، وفي أحد المراكز الهنديـة أسر حوالي ثمـان مئـة بحار هندي ، وشنقهم على ظهر سفينته ، وقطع أيـديهم ورؤوسهم ، ثم دفع جثثهم في مركب حمله التَّيار إلى الشاطئ ليراها ذووهم .

وبعد عودة دو غاما بستة أشهر ، أرسل الملك أُسطولاً مكوَّنـاً من

ثلاث عشرة قطعة إلى الهند بقيادة بدرو ألفارز كابرال Pedro Alvarez Cabral ، عليها ألف وخمس مئة جندي عدا البحارة ، ومهرة العمال ، وسبعة عشر قسيساً . وكان على كابرال أن يبدأ بالدعوة إلى المسيحيَّة ، فإن لم تأت الدَّعوة بالنتيجة المنشودة فيحتكم إلى السَّيف »[1] .

وفي سنة ١٥٠٦ م أرسل الملك مانويل ألفونسو ألبوكيرك «Alfonso d'Albuquerque» إلى الشَّرق ، فدخل مضيق باب المندب ووصل مصوَّع وسواكن وجدة والسويس ، ثم وصل إلى شواطئ عُمان ومضيق هرمز .

وكان ألبوكيرك يرى « إنني مقتنع كل الاقتناع ، بأنَّه منذ اللحظة الَّتي ننتزع فيها تجارة التَّوابل من أيدي العرب تنهار القاهرة ومكَّة ، إذ يضطر تجارهما إلى شراء ما يعرضونه للتصدير من البرتغال »[2] ؛ لذلك عندما استولى على ملقا ، في جنوب شرقي آسية ، وعلم الملك مانويل نبأ الاستيلاء عليها ، أوفد من فوره رسولاً إلى البابا ، ليفضي إليه بالنَّبأ السَّعيد ، بأنَّ « القرن الذَّهبي قد أصبح الآن ملكاً للبرتغال » ، وأقام البابا ليو العاشر[3] بمناسبة « هذا

---

(١) في طلب التَّوابل ، ص ٢٠٨

(٢) في طلب التَّوابل ، ص ٢١٨ ، [انظر للتَّعرف على هذه المدن والمواقع ، المصوَّر ص ١٨] .

(٣) البابا ليو (لاون) العاشر ، البابا السادس عشر بعد المئتين [١٥١٣ ـ ١٥٢١] .

الانتصار العظيم » ، انتصار ملك مسيحي على (الكفار) والوثنيين قدَّاساً خاصاً للشكر ، وأمر بتسيير موكب رسمي اشترك فيه بنفسه[1] .

وفي (غُوَا) قابل ألبوكيرك سفيراً من قبل الملكة الوصيَّة على عرش الحبشة ، كان قد وفد على الهند بغية السَّفر إلى البرتغال على ظهر إحدى السُّفن البرتغاليَّة العائدة إلى موطنها ، وكان هذا المبعوث يحمل خطاباً تقترح فيه الملكة التَّزاوجَ بين أبناء الأسرتين المالكتين ، وعرضاً رسمياً من الحبشة بإرسال الجنود والمؤن لمعاونة البرتغاليين[2] في كسر شوكة السُّلطان في القاهرة[3] ، وتحطيم مدينة مكَّة .

راق كلُّ هذا لألبوكيرك ، لأنَّه يتمشَّى مع خطَّته ، إذ كانت تلتهب في رأسه فكرة المسير السَّريع إلى المدينة لاختطاف رفات

---

(١) في طلب التَّوابل ، ص ٢٢٢

(٢) أرسل البرتغاليون موفَدَيْن إلى الحبشة هما : بدرو كوفلهام وألفونسو دو پايفا ، لطلب تطويق العالم الإسلامي وتقديم المساعدات للبرتغاليين للهجوم على مصر والحجاز ، وفي سنة ١٤٩٠ م قابل كوفلهام النجاشي إسكندر ، الذي ماطله في العودة . وعندما وصل النجاشي ناحوم إلى سدّة الحكم ، اتّهم كوفلهام بالجاسوسية ورفض أن يأذن له في العودة إلى وطنه رفضاً باتاً ، وكذلك رفض النجاشي داود الذي خلف ناحوم على العرش ، (في طلب التَّوابل ، ص ١٣٣ ـ ١٣٥٤) .

(٣) كان يحكم المماليك قلب الوطن العربي في هذه الآونة ، وكانت القاهرة عاصمتهم ، وسلطانهم خلال هذه الأحداث : قانصوه الغوري [١٤٤٦ ـ ١٥١٦] .

النبي ﷺ ، ثمَّ عرضهـا على المسلمين بعـد ذلـك مقـابـل التَّخلي عن فلسطين[1] ، وهـذا يثبت الرُّوح الصَّليبيَّـة الأُوربيَّـة الحـاقـدة ، التي وجَّهت الكشوف الجغرافيَّة .

وكان من بين الخطـط التي اعتزمهـا ألبوكيرك ، تحويل نهر النيل عن مجراه ، كي تحرم مصر من خصوبـة أرضهـا[2] فيتمّ هـلاكهـا ، وعبَّر الأحبـاش عن استعـدادهم ورغبتهم الصَّادقـة في القيـام بهـذا العمـل ، ولكن كانت تنقصهم الوسـائل لتنفيـذه ، فطلب ألبـوكيرك من الملـك مانويل أن يرسل إلى الحبشة صُنَّاعاً من جزر آزور ، لمهارتهم في القيام بمثل هـذا العمـل ، إذ كان عليهم أن يفتحـوا ثغرة بين سلسلـة التِّـلال الصَّغيرة الَّتي تجري بجـانب النيـل داخـل الحبشـة . فـأرسـل الملـك البرتغـالي (دون رودريجـو دي ليما Rodrigo de Lima) سفيراً إلى الحبشة ، فوصل عاصمتهـا أكسوم سنـة ١٥٢٠ م ، ولكن ألبوكيرك توفي قبـل ذلـك (سنـة ١٥١٥ م) ، دون أن يضـع الخطـط ـ الَّتي كان قـد اعتزمها بشأن مصر ـ موضع التنفيذ .

خلف جون الثـالث ، مـانويلَ الأوَّل سنـة ١٥٢١ م ، وفي عهـده

---

(١) في طلب التَّوابل ، ص ٢٢٥ .

(٢) لأن معظم كميات الطَّمي (الغرين) الَّتي يحملها النيـل ، قـادمة من رافـده النيـل الأزرق القادم من الحبشة ، وهي سماد طبيعي ممتاز لأراضي وادي النيل .

دخـل البرتغـاليـون مـدينـة البَصْرة سنـة ١٥٢٩ م ، وصعـدوا في نهري دجلة والفرات .

وبعد وفاة جون الثالث سنـة ١٥٥٧ م تربَّع سبستيـان على عرش إمبراطوريَّـة يمتـدّ نفوذهـا على سـواحـل إفريقيـة وآسيـة وأمريكـة ، فتطلَّع إلى استخـلاص الأمـاكن المقـدَّسـة المسيحيَّـة في المشرق من يـد المسلمين ، فـاتصـل بخـالـه ملـك إسبـانيـة (فيليب الثـاني) يـدعـوه للمشاركة بحملة صليبيَّة على المغرب العربي كي لا تعيد الدولة السَّعديـة بمعاونة العثمانيين الكرَّة على الأندلس .

وسبستيـان هـذا .. هو قـائـد الجموع الصَّليبيَّـة إلى معركـة وادي المخازن .

☆ ☆ ☆



الأشراف

السَّعْدِيُّون

☆ « في الوقت الّذي كانت أوربة في العصر السّعدي يحتفظ الملوك فيها وحدهم بحقّ الحكم في عدد من القضايا ، فإنّ الملوك السّعديين لا ينظرون إلاّ في القضايا المرفوعة ضدّ رجال السُّلطة ، وهذا ما كان يدعى بقضاء المظالم » .

جاء في الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى[1] ، أن أصل الأشراف السَّعْديين من الحجاز ، ينتسبون إلى ولد محمَّد النَّفس الزَّكيَّة ، وسبب قدومهم من الحجاز إلى المغرب أن أهل (درعة)[2] ، كانت لا تصلح ثمارهم ، وتعتريها الأمراض كثيراً ، فقيل لهم : لو أتيتم بشريف إلى بلادكم ، كما أتى أهل سجلماسة ، لصَلُحَت ثماركم كما صَلُحَت

---

(١) لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري السّلاوي ، طبعة دار الكتاب ، الدّار البيضاء ١٩٥٥ م .

(٢) دَرْعَةُ : مدينة صغيرة من جنوبي المغرب ، بينها وبين سجلماسة أربع فراسخ ، ودرعة غربيها [معجم البلدان ٢/٤٥١] .

ثمارهم ، وقد كان أهل سجلماسة جاؤوا من أرض ينبع[1] بشريف من آل البيت ، فأتى أهل درعة بالمولى زيدان بن أحمد ، لذلك يقال : دولة الأشراف السَّعديين من آل زيدان .

وأما تسميتهم بالسَّعديين ، هذه النِّسبة الَّتي لم تكن لهم في القديم ، ولم تظهر في سجلاتهم ورسائلهم ، بل لم يجترئ أحد على مواجهتهم بهذه التَّسمية ، لأنه إنما يصفهم بها من يقدح في نسبهم ، ويطعن في شرفهم ، ويزعم أنهم من بني سعد بن بكر بن هوازن الذين منهم حليمة السَّعديَّة ظئر[2] رسول الله ﷺ .

وكثير من العامَّة يعتقدون أنَّهم إنَّما سموا بذلك لأنَّ النَّاس سعدوا بهم ، يقول أبو العباس النَّاصري : « وإنَّما نصفهم نحن بذلك لأنَّهم اشتهروا عند الخاصَّة والعامَّة به ، فصار كالعلم الصرف المرتجل ، مع أنَّه لا محذور بعد تحقيق النَّسب وثبوت الشَّرف »[3] .

قامت دولتهم بعد دولة بني وطاس[4] ، فوقعت على كاهلهم

---

(١) يَنْبُعْ : ميناء المدينة المنوَّرة على ساحل البحر الأحمر ، في معجم البلدان ٥/٤٥٠ : وهي عن المدينة على سبع مراحل .

(٢) الظِّئر : العاطفة على غير ولدها المرضعة له ، [اللِّسان : ظأر] .

(٣) الاستقصا : ٥/٦

(٤) قامت بعد دولة المرابطين في المغرب الأقصى دولةُ الموحِّدين ثم دولةُ بني مرين ثم دولة بني وطَّاس ، ثم الأشراف السَّعديون : [٩٥٥ ـ ١٠٦٤ هـ = ١٥٠٩ ـ ١٦٥٤ م] .

مهمة جهاد البرتغاليين الَّذين سيطروا على شواطئ المغرب الأقصى .

☆ ☆ ☆

السّلاطين السَّعْدِيُّون ومعركة وادي المخازن :

١ ـ محمد المتوكل على الله (المسلوخ) :

توفي الغالب بالله سنة ١٥٧٤ م ، فبويع ابنه محمَّد الَّذي لقَّب نفسه ..وكّل على الله ، وكان فظّـاً غليظـاً مستبـداً ظـالمـاً ، قتل اثنين من ..وتـه عنـد وصولـه إلى الحكم ، وأمر بسجن آخر ، فكرهتـه الرَّعيَّـة ، ..سوصاً والْمُلْـك يؤول إلى أكبر أُمراء الأسرة سنّـاً ، لـذلـك رأى عمُّـه ... الملك أنَّه أوْلى بالْمُلْك من ابن أخيه ، فأضمر المتوكِّل الفتك بعمَّيه ... الملك وأحمد ، ففرّا منه مستنجدين بالعثمانيين .

وصفـه السَّلاوي بقولـه : وكان السُّلطـان المـذكـور فقيهـاً أديبـاً ..ـاركاً مجيداً قوي العـارضـة في النَّظم والنثر ، وكان مع ذلـك متكبِّراً ..هاً غير مبال بأحد ـ مع أن التَّواضع مصيدة الشَّرف ـ ، ولا متوقفـاً .. الدِّماء ، عسوفاً على الرَّعيَّة ، من شعره قوله :

..ـ بنا نَصْطَبِحْ صَهْبـاءَ صَـافِيَـةً   في وَجْهها عَسْجَدٌ في وَجْهِهِ نُقَـطُ
و..ـهض إليها على رغم العِـدا قَلِقـاً   فَإنَّ تأخيرَ أوقـاتِ الصِّبـا غَلَـطُ

ومن شعره أيضاً قوله :

سَارُوا فَسَارَ فُؤادِي إثرَ ظَعنِهِمُ ... وخَلَّفوني نَحيلَ الجِسْمِ حَيْرانا
لا افترَّ ثَغْرُ الثَّرى من بَعْدِ بَيْنِهِمُ ... ولا سقى هَاطِلٌ ورداً وَرَيْحانا[1]

☆ ☆ ☆

٢ ـ أبو مروان عبد الملك بن الشيخ السَّعدي « المعتصم بالله » :

عَمُّ المتوكِّل (المسلوخ) ، وكان يرى نفسه أولى بالْمُلْك منه ، لأنَّ الْمُلْكَ يؤول إلى أكبر الأمراء السَّعديين سناً .

سجاياه حميدة ، وسيرته عطرة ، جمع بين العِلْمِ والشَّجاعة .

وهو سياسي محنَّك ، أتقن عدة لغات أُوربيَّة وشرقيَّة ، أمُّه سحابة الرَّحمانيَّة ، سارت به مع أخيه أحمد إلى الجزائر ، فهيّأ الوالي العثماني لهم سبل السَّفر إلى الأستانة[2] ، حيث التجأ إلى السُّلطان سليم بن سليمان طالباً نجدته ومعونته ، فتثاقل عنه السُّلطان سليم ، إلى أن بعث بأُسطول بحري لفتح تونس ، وتخليصها من يد الحفصيين الَّذين استنجدوا بالإسبان ، واستطاعت هذه العمارة البحرية تحقيقَ

(١) الاستقصا : ٥/٥٨

(٢) الأستانة : القسطنطينية ، اسطنبول ، عاصمة سلاطين بني عثمان .

هدمها ، وفرَّ الحسن بن محمد الحفصي إلى قشتالة ، بعد أن فتح خير الدين بربروس تونس ، فشهد عبد الملك الفتح ، وعاد بالبشرى إلى السُّلطان العثماني[1] ، فأنجده ، وكتب أمراً « للدَّولاتي » صاحب الجزائر ، ليبعث معه خمسة آلاف من عسكر التُّرك ، يدخلون معه أرض المغرب الأقصى ليعيدوا له حقَّه في الحكم[2] .

وعندما دخل عبد الملك المغرب مع الأتراك ، كاتب حاشية المتوكِّل (المسلوخ) وبطانته ، ورؤوس أجناده ، يعد طائعهم ، ويتوعَّدُ عاصيهم . وكتب الله النصر لعبد الملك في معركة قرب مدينة فاس[3] ، وفرَّ المتوكِّل (المسلوخ) من المعركة ، وكان ذلك « سبب خراب ملكه ، وإقامة ملك عمِّه »[4] ، ودخل عبد الملك مدينة فاس يوم الأحد ٧ ذي الحجة سنة ٩٨٣ هـ[5] ، ثمَّ ضمَّ مَرَّاكُش ، وفرَّ المتوكِّل إلى جبال السُّوس ، وجعل يتنقَّل بين قبائلها وأحيائها ،

(١) توفي السلطان سليم الثاني سنة ٩٨٢ هـ = ١٥٧٤ م ، فخلف ابنه مرادخان الثالث بهذا التاريخ ، لذلك تذكر بعض المصادر أنه قابل مراد خان الثالث ، الذي حكم بين : [٩٨٢ ـ ١٠٠٣ هـ = ١٥٧٤ ـ ١٥٩٥ م] انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢٦٠

(٢) الاستقصا : ٦١/٥

(٣) في موضع معروف باسم (الركن) من أحواز فاس [الاستقصا : ٦٤/٥] .

(٤) الاستقصا : ٦٤/٥

(٥) الموافق ٣١ آذار (مارس) ١٥٧٦ م ، واستخلف عليها أخاه أبا العباس أحمد ، فمن عادة الملوك السَّعديين أن يعيِّنوا ولي العهد نائباً بفاس ، تقديراً لمكانتها التَّاريخيَّة والاجتماعيَّة ، وفيها يتاح لوليِّ العهد أن يتلقى تجارب كافية في ممارسة السُّلطة .

إلى أن اجتمعت عليه طائفة من الصَّعاليك ، وشكَّل ما يشبه الجيش استهوتهم منه الأضاليل والوعود ، وقادهم إلى مَرَّاكُش ، فدخلها ، إلاَّ أن أحمد ـ أخا عبد الملك ـ جاء من مدينة فاس ، ففرَّ المتوكل (المسلوخ) إلى السُّوس ثانية ، ومنها إلى سبتة ، ثم دخل طنجة مستصرخاً بملك البرتغال سبستيان . فكان ذلك سبباً من أسباب معركة وادي المخازن .

من إصلاحاته :

ـ أمر بتجديد السُّفن ، وبصنع المراكب الجديدة ؛ فانتعشت بذلك الصناعة عامَّة .

ـ اهتم بالتِّجارة البحريَّة ، وكان للأموال الَّتي غنمها من الحروب الدائمة على سواحل المغرب أثر في ازدهار الدَّولة .

ـ أسَّس جيشاً نظاميّاً على النظام العثماني من حيث اللِّباس والتَّسليح والرُّتب .

لقد فرض عبد الملك المعتصم بالله احترامه على أهل عصره ، حتَّى الأُوربيين ، احترموا وأجلُّوا هذا الملك ، قال الشَّاعر الفرنسي أكريبا دو بيني المعاصر لأحداث هذه الفترة : « كان عبد الملك جميل الوجه ، بل أجمل قومه ، وكان فكره نيِّراً بطبيعته ، وكان يحسن اللُّغات الإسبانيَّة والإيطاليَّة والأرمنيَّة والرُّوسيَّة ، وكان شاعراً مجيداً

ل اللُّغة العربيَّة ، وباختصار ، فإنَّ معارفه لو كانت عند أمير من أمرائنا لقلنا إن هذا أكثر مما يلزم بالنِّسبة لنبيل ، فأحرى لملك »[1] .

☆ ☆ ☆

٢ ـ أبو العبَّاس أحمدَ المنصور بالله « الذَّهَبي » :

ولد أبو العباس أحمد المنصور بالله بفاس سنة ٩٥٦ هـ = ١٥٤٩ م .

أبوه محمد المهدي الشيخ .

وأمُّه مسعودة الوزكيتيَّة البربريَّة ، المعروفة لدى الأوساط الشعبيّة بلالا عودة ، لها مبرَّاتها الوقفيَّة بمراكش خاصة[2] .

درس في أكثر من مركز علمي ، ولا سيِّما بتارودانت ومَرَّاكش وفاس . درس علوم اللُّغة والأدب والتَّاريخ والتَّراجم والفقه والحديث والمنطق والبلاغة والفلك والرِّياضيات والأُصول والتَّفسير .

من أبرز أساتذته :

---

(١) دعوة الحق ، عن مجموعة مصادر تاريخ المغرب ، لهانري دي كاستر .

(٢) للتَّوسُّع بترجمة حياتها : الاستقصا : ١٢٦/٥ وما بعدها .

أبو العباس أحمد بن علي المنجور ، المعروف بثقافتـه الموسوعيَّـة ، درس عليه المنطق وعلم الكلام والنَّحو والبلاغة .

وشقرون بن هبــة الله الـوهراني ، ودرس عليــه الفقــه والتَّفسير وغيرهما .

أبو زكريا يحي السَّراج ، ومحمد بن يوسف الدرعي ، وسليمان بن إبراهيم ، وموسى الروداني .

درس الهندسة مباشرة من كتاب إقليدس .

ومن مؤلفات أبي العباس أحمد المنصور بالله :

١ ـ « المعارف في كلِّ ماتحتاج الخلائف » ، وهو كتـاب في تـدبير سياسة الدَّولة ، ويتنـاول الطُّرق التَّقنيـة والعلميَّـة لصنـاعـة الأسلحـة والذَّخيرة ، وبناء التَّحصينات ، إلى جانب الاستراتيجيَّة العسكريَّة .

٢ ـ مؤلَّف في معـالجـة الحـديث النَّبويِّ : « نحن معـاشر الأنبيـاء لانورث ، ماتركناه صدقة »[١] .

٣ ـ إنتاج أدبي شعري يتميَّز بالرِّقَّة أحياناً ، وبالمحسنات البديعيـة أحياناً أخرى .

---

(١) علِّق عليه بعض من اطَّلع عليه بأنَّه أزاح إشكالات المسألة كلِّها .

وصفه السّلاوي بقوله : نشأ المنصور في عفاف وصيانة وتعاطٍ للعلم ومثافنة[1] لأهله عليه ، وكانت مخايل الخلافة لائحة عليه من نعومة أظفاره[2] . كان طويل القامة ممتلئ الخدين ، واسع المنكبين ، تعلوه صفرة رقيقة ، أسود الشّعر ، أدعج[3] أكحل ، ضيق البلج[4] ، برّاق الثّنايا ، حسن الشّكل ، جميل الوجه ، ظريف المنزع ، لطيف الشمائل[5] .

☆ ☆ ☆

التّنظيمات الإداريّة والسّياسيّة في دولة الأشراف السّعديّين

الجهاز الإداري :

ضمّت وزارة عبد الملك المعتصم بالله ، وأحمد المنصور الذهبي[6]

---

(1) الثَّفِنَةُ : ركبة الإنسان ، والثفنة : العدد والجماعة من الناس ، وثَفَنَ الشيءَ يَثْفِنُه ثفناً : لَزِمَه (اللّسان : ثفن) .

(2) الاستقصا : ٨٩/٥ (بتصرُّف) .

(3) الدَّعَجُ : شدة السّواد (اللّسان : دعج) .

(4) البَلَج : تباعد مابين الحاجبين (اللّسان : بلج) .

(5) الاستقصا : ٩١/٥

(6) لُقّب أحمد المنصور (بالذّهبي) لأنه سكّ عملة ذهبيّة بكثرة بعد موقعة وادي المخازن ، الّتي درّ انتصاره فيها على الخزينة أموالاً طائلة من فداء الأسرى .

وزراء من مستوى ثقافي رفيع ، كأبي فارس عبد العزيز القشتالي ، وعبد العزيز المزوار . وكان للوزراء كتّاب يدانونهم ثقافة وسعة أُفق ، مثل أبي عبد الله بن عيسى ، ومحمد بن عمر الشّاوي ، وعلي بن أحمد الشّاوي .

وكان السُّلطان وكبار رجال الدولة على معرفة بأمور الدَّولة الدّاخليَّة ، وأحوال السُّكان عامَّة ، وعلى اطلاع ودراية بالسِّياسة الدَّوليَّة ، وخاصَّة الدُّول الَّتي لها علاقة بالسِّياسة المغربيَّة .

وكان أحمد المنصور يحاسب وزراءه وكبار موظفيه على عدم المحافظة على أوقات العمل الرَّسميَّة ، أو التَّأخُّر في الرَّدِّ على المراسلات الإداريَّة والسِّياسيَّة ، ومن أعماله إحداث حروفٍ لرموزٍ خاصَّة (شيفرة) لكتابة المراسلات السِّريَّة ، حتَّى لا يعرف فحواها إذا وقعت في يد عدو ، وكان إذا غادر أحد أبنائه أو مساعديه الْخُلَّص العاصمة ، سلَّم إليه نسخة منها ، يمكنه أن يفكَّ بها رموز الخطابات الملكية عند ورودها إليه .

ومن المناصب العليا في بلاط أحمد المنصور منصب المزوار ، أو الحاجب ، ومن أبرز الَّذين تولَّوه في عهده عزوز بن سعيد الوزكيتي ، ومنصب المزوار هذا دون مقام الحاجب (رئيس الوزراء) عند الحفصيِّين أو المرينيين أو الأُمويين في الأندلس .

ومن المناصب العليا الهامة أيضاً أمين المال ، ويمثل وزير المالية اليوم .

والقضاء المغربي تمتّع بسمعة رفيعة عبر التّاريخ الإسلامي ، وأروعها وأجملها أيام أحمد المنصور ، حيث فصلت السُّلطة القضائيَّة عن السُّلطة التنفيذية تماماً ، ولم يسمح للسُّلطة التّنفيذيَّة أن تتدخل بالسُّلطة القضائية مطلقاً ، وقضاء المظالم الذي كان يعقد له العاهل السَّعدي نفسه مجلساً أسبوعياً دوريّاً ، كانت مهامه إدارية أكثر منها قضائية .

قارن مؤرخ فرنسي[1] بين القضاء الأُوربي والقضاء المغربي في القَرْنَيْن ١١ و ١٢ هـ = ١٦ و ١٧ م فقال : « في الوقت الَّذي كانت أُوربة في العصر السَّعدي يحتفظ الملوك فيها وحدهم بحقِّ الحكم في عدد من القضايا ، فإنَّ الملوك السَّعديين لا ينظرون إلاَّ في القضايا المرفوعة ضدّ رجال السُّلطة ، وهذا ما كان يدعى بقضاء المظالم » .

كان أحمد المنصور يرأس مجلس المظالم في مقصورة جامع القصبة بمرَّاكُش ، بجوار قصره ، وشكَّل لجنة للمراقبة تتولّى النَّظر بصفة دوريَّة في مجرى القضاء بالأقاليم ، وأوضاع الفئات الشَّعبيَّة بوجه

---

(١) دعوة الحق ، عن : Lavisse, Histoire générale 4,141 .

عام ، وكان أحمد المنصور يدرس تقاريرهم بعناية ، كي يتتبع سير الأحكام والإدارة بمملكته .

وأوجد أحمد المنصور لأوَّل مرة في العهد السَّعدي منصباً لقاضي القضاة ، خصَّصه للسُّودان[1] ، نظراً لبعد المسافة بينها وبين العاصمة مَرَّاكُش ، ويستقرّ هذا القاضي الرَّفيع المستوى بمدينة تومبوكتو[2] ، وأوَّل من عُيِّن بهذا المنصب أبو جعفر العاقل الصِّنهاجي ، الَّذي هو مواطن سوداني ، وكان تحت نظره سائر قضاة السُّودان .

ولاتساع رقعة الدَّولة أقام السَّعديون محطَّات عديدة في أرجاء البلاد ، تحت حماية حُرَّاس مقيمين ، لا يبعد بعضها عن بعض إلاَّ بمسافة عشرين كيلو متراً ، وبهذه المحطَّات ينزل المسافرون والقوافل المارّة عبر القرى والبوادي ، وتتوفَّر في هذه المحطات المؤن الضروريَّة ؛ ليشتري منها النازلون مايحتاجون إليه .

وأوجد أحمد المنصور مجلساً استشارياً سماه « الدِّيوان »[3] ، أو

---

(١) السُّودان هنا منطقة حوض النيجر الشمالي ، جنوبي موريتانية ومالي حالياً .

(٢) من أهم المراكز التِّجاريَّة والثقافيَّة الإسلاميَّة في إفريقية الغربيَّة ، مدينة هامة على نهر النيجر ، وهي في جمهورية مالي حالياً .

(٣) جاء في الاستقصا (١٩٠/٥) : « عدا محمَّد الكبير خال ـ أحمد ـ المنصور السَّعدي على رجل بدرعة في ضيعة له ، فشكاه إلى المنصور ، فقال له : كم تساوي ضيعتك ؟ قال : سبع مئة أوقيَّة ، قال : خذها وقل لخالي : الموعد بيني وبينك الموقف الَّذي لاأكون أنا فيه سلطاناً ، =

« مجلس الملأ » ، اختصاصاته سياسيَّة وقضائيَّة وعسكريَّة ، وهو أعلى مرجع قانوني للبلاد ، ويتقبَّل أحكام قضاته ، ولو كانت بحق بعض رجال المجلس ، أو ضدّ المجلس كله .

وعندما يقتضي الأمر استشارات على نطاق شعبي واسع ، يضاف إلى « الدِّيوان » عناصر تمثيليَّة من مختلف المدن والمراكز القروية الكبرى .

الجيش :

نُظِّم الجيش وحظي بعناية عبد الملك المعتصم بالله ، وكان نظامه عثمانياً من حيث اللِّباس والتَّسليح والرُّتب .

كما حظي في عهد أحمد المنصور بقادة ذوي كفاءة عسكرية عالية ، من أهمهم : إبراهيم بن محمد السُّفياني قائد الجبهة الأماميَّة في معركة وادي المخازن ، وأحمد بن بركة ، وأحمد الحداد الغمري المعقلي .

= ولا أنت خال السُّلطان ، فرجع صاحب الضَّيعة وأبلغ العامل كلام المنصور ، فأمسك برأسه ساعة ، ثمَّ قال له : الْحَق بضيعتك ، وغرم له كل ما أكل منها » . وكان الديوان يعقد : « يوم الأربعاء للمشورة ، وسمَّاه يوم الدِّيوان ، تجمَع فيه وجوه الدَّولة ، ويتطارحون فيه وجوه الرَّأي فيما ينوب من جلائل الأمور ، وعظيم النَّوازل ، وهناك يظهر شكايته من لم يجد سبيلاً للوصول إلى السُّلطان ، قالوا : ومن حزمه أنَّه كان متطلِّعاً لأخبار النَّواحي بحَّاثاً عنها ، غير متراخ في قراءة ما يرد عليه من رسائل عمَّاله ، ولا يبطئ بالجواب ، ويقول : كلُّ شيء يقبل التَّأخير إلاَّ مجاوبة العمال عن رسائلهم ، وكان الكتَّاب لا يفارقون مراكزهم إلاَّ في أوقات مخصوصة » ، (الاستقصا : ١٨٨/٥) .

ومن قادة وادي المخازن البارزين : محمد أبو طيبة ، وأحمد بن موسى ، ومحمد بن موسى ، وأبو علي القوري .

رافق الجيش عدد من التقنيين المتخصّصين في ميادين معيَّنة ، كالنجارة والحدادة والبناء ، مع وحدات طبيَّة متخصّصة أيضاً ، تتألّف من جرّاحين وحلاَّقين وأطباء ونقّالين ، بأوعيتهم وأدواتهم من مراهم[1] وضمادات وخيام تشكل مستشفيات ميدانيَّة ، تستقبل الجرحى والمرضى .

أما الأسلحة ، فقد كانت البنادق (المكاحل) سلاحاً فردياً ، وكان للمدافع والمتفجّرات (الألغام) القول الفصل في المعارك في هذه الآونة ، لذلك بنى السَّعديُّون « دار العدة » لصناعة المدافع[2] . كما اهتموا ببناء الأسطول ، خصوصاً في ميناءَي العرائش وسلا ، كما بنيت سفن خفيفة في نهر النيجر ، بفضل التقنيين المرافقين للجيش .

برهن جيش السّعديين بقيادة ضباطه الأكفاء على روح انضباط عالية ، وكفاءة ممتازة في ممارسة مهماته العسكريَّة ، وهذا الجيش هو الَّذي حقّق نصر وادي المخازن العظيم .

☆ ☆ ☆

---

(١) مرهم : هو ألين ما يكون من الدّواء الّذي يُضَمّد به الجرح ، (اللّسان : مرهم) .

(٢) ازدهرت أيام الموحدين والسّعديين من بعدهم « الصّناعة الثّقيلة » ، فالقوّة الضّاربة أيام السّعديين ، ووسائل الحرب والمدافع والسّلاح الثقيل من صنعهم .

وَادِي الْمَخَازِن

معركةُ الملوكِ الثّلاثةِ

« معركة القصر الكبير »

الاثنين : ٣٠ جمادى الثّانية ٩٨٦ هـ

الموافق : ٤ آب (أُغسطس) ١٥٧٨ م

☆ معركة وادي المخازن : « كانت تصفية لحساب ، ورداً لاعتبار ، وتصحيحاً لأوضاع » .

أسْبَابُها :

أراد ملك البرتغال الشّاب سبستيان Sabastian القيام بعمل سياسي - ديني ، هدفه :

١ - محو ما وصم به عرش البرتغال خلال فترة حكم أبيه يوحنا الثالث ، ذلك الملك الّذي وُصِفَ بالضّعف والتخاذل ، والّذي انسحب البرتغاليون في عهده [١٥٢١ - ١٥٥٧ م] من آسفي وأزمور وأصيلا .. وغيرها .

٢ - وأراد أن يعلي شأنه بين ملوك أُوربة ، فظهر يحمل في يمناه

كتابه المقدَّس ، وفي يسراه التَّاج والصَّولجان ، ليتوِّج نفسه إمبراطوراً على المغرب وإفريقية ، إنَّه حلم امتلاك الدُّنيا بعد الكشوف الجغرافية ، واحتلال كل أراضي الإسلام والقضاء عليه أينما وُجِد .

فالملك الشاب (سبستيان) كان يملك من الحماس والحقد على الإسلام وأهله عموماً ، وعلى المغرب خصوصاً ، ما تكاد تنفجر به جوارحه ، وبدافع حقد وتعصُّب صليبي من جهة ، وبدافع من العقليَّة الاستعماريَّة ، الَّتي ترى أن يدها مطلقة ، في كلِّ أرض عربية مسلمة تعجز عن حماية نفسها من أي خطر خارجي من جهة أُخرى ، خطط لغزو واحتلال المغرب[١] .

وجاءت الفرصة الكبيرة ، عندما استنصر المتوكِّل (المخلوع المسلوخ) بسبستيان (الشَّاب الغرّ) ، على عَمَّيْه عبد الملك المعتصم بالله ، وأحمد المنصور ، وعلى بني جلدته ، مقابل أن يتنازل له عن جميع شواطئ المغرب : « فشرط عليه أن يكون للنَّصارى سائر السَّواحل ، وله هو ما وراء ذلك »[٢] .

ومما جاء في الاستقصا (٨٢/٥) ، أن المتوكِّل (المسلوخ) ذهب إلى إسبانية أوَّلاً يطلب معونة ملكها فيليب الثاني في أن يعينه على

---

(١) دعوة الحق ، مقالة الاحتلال البرتغالي ومعركة وادي المخازن ، ص ١٠٤ ، للأستاذ عبد القادر العافية .

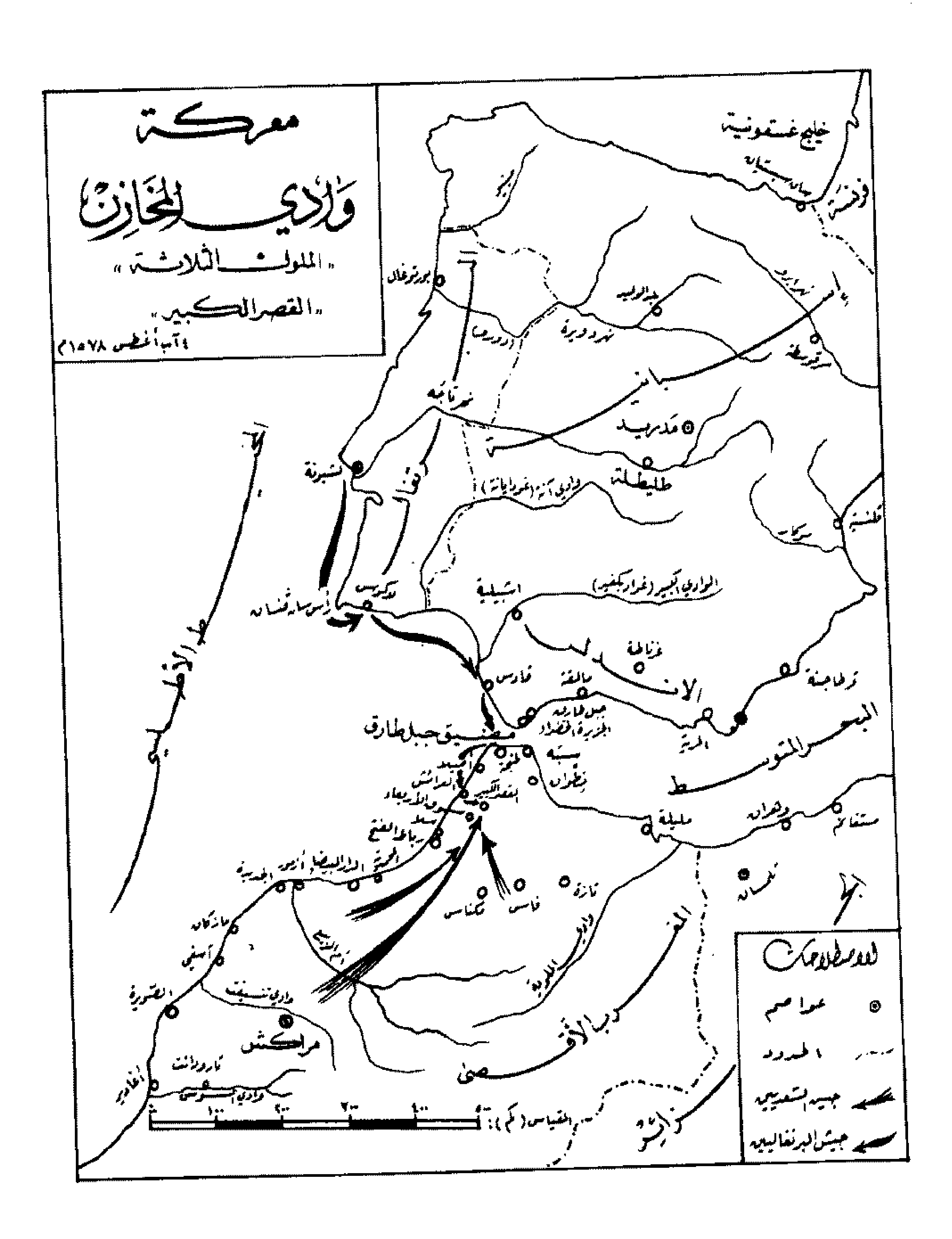
(٢) الاستقصا : ٦٩/٥

استرجاع ملكه ، فامتنع أوَّلاً ، فتوجَّه المتوكل (المسلوخ) إلى لشبونة يطلب معونة سبستيان ، فأجابه ، وذهب إلى خاله فيليب الثَّاني وطلب منه الإعانة على ماهو بصدده ، فوعده بأن يعطيه من المراكب والعساكر ما يملك به مدينة العرائش ، لأنَّه كان يرى أنَّها تعدل سائر مراسي المغرب ، ثم أمدَّه بعشرين ألفاً من عسكر الإسبان ، وكان سبستيان قد عبّأ معه اثني عشر ألفاً من البرتغال . كما أرسل إليه الطُّليان ثلاثة آلاف ، ومثلها من الألمان وغيرهم عدداً كثيراً ، وبعث إليه البابا صاحب رومة[1] ، بأربعة آلاف أُخرى ، وبألف وخمس مئة من الخيل ، واثني عشر مدفعاً ، وجمع سبستيان نحو ألف مركب ليحمل هذه الجموع إلى العدوة المغربيَّة .

وحذَّر فيليب الثاني ابن أخته سبستيان عاقبة التَّوغُّل في أرض المغرب ، كما حذَّره كبار دولته عاقبة هذا الخروج ـ كما ذكرت تواريخ البرتغال ـ ونهوه عن توريط البرتغال في بلاد المغرب وقبائله ، فصمّ عن سماع ذلك كلِّه ، ولجّ في رأيه ، وملك الطَّمع قلبه ، وأبى إلاَّ الخروج ، فأسعفوه .

ولا ندري ، هل كانت تواريخ الأُوربيين عامَّة ، والبرتغاليين خاصة ، ستكتب هذا التحذير لو كُتِبَ لسبستيان النَّصر على أرض

(١) البابا غريغوريوس الثالث عشر : [١٥٧٢ ـ ١٥٨٥ م] .


معركة
وادي المخازن
«الملوك الثلاثة»
«القصر الكبير»
٤ آب أغسطس ١٥٧٨م
خليج غسقونية
فرنسة
إسبانيا
مدريد
طليطلة
اشبيلية
الأندلس
البحر المتوسط
مضيق جبل طارق
سبتة
تطوان
مليلة
وهران
مستغانم
تلمسان
فاس
مكناس
تازة
مراكش
الصويرة
أغادير
الاصطلاحات
عواصم
الحدود
جيش السعديين
جيش البرتغاليين

المغرب ؟!؟ والَّـــذي هيّـــأ الْخُطب الَّتي ستُلقى من فـوق منبر القرويين ، ومنبر الكتيبـة بمرَّاكش ، وحملـوا النَّـواقيس الَّتي ستـدق وتـدوي فوق صوامع فـاس ومرَّاكش ، كما دوَّت فـوق صـومعـة مسجـد إشبيلية ، وصومعة مسجد قرطبة ؟!

وهكذا .. وجد الملك الشَّاب فرصة هائلـة بلجوء الملـك الطريـد المتوكِّل (المسلوخ) ، وهي فرصة لاسترجـاع المجـد البرتغـالي ، فهـذه الفرصـة ستخـوِّلـه أن يحتـل أجـزاء كبيرة من المغرب ، كما ستخـوِّلـه التَّدخل المباشر في السِّياسة المغربيـة ، وتصوَّر أنَّـه أمـام فرصـة ذهبيَّـة يجب اغتنامها بكلِّ حماس وقوَّة .

ولا شكَّ بعد هـذا ، أنَّ المتوكِّل (المسلوخ) كان حـافزاً مشجِّعـاً لحملة صليبيَّة جديدة على المغرب العربي .

☆ ☆ ☆

مَسيرةُ الجيشين إلى وادي المخازن :

أ ـ الجيش البرتغالي[1] :

أبحرت السُّفن الصَّليبيَّة من ميناء لشبونـة ، بـاتِّجـاه المغرب يوم ٢٤ حـزيران (يـونيـو) سنـة ١٥٧٨ م ، وأقـامت في لاكـوس بضعـة

(١) والأصح الجيش الأوربي الصَّليبي ، لأن معظمه من الإسبان والطُّليان والألمان ..

أيّام[1] ، ثم توجّهت إلى قادس حيث أقامت أسبوعاً كاملاً ، ثم رست بطنجة في ٩ تموز (يوليو) ، وفي طنجة وجد سبستيان حليفه المتوكّل (المسلوخ) ، ثمَّ تابعت السُّفن سيرها إلى أصيلا[2] ، وأقام سبستيان بطنجة يوماً واحداً ، ثمَّ لحق بجيشه يوم عاشر تموز (يوليو) .

٢ - الجيش المغربي :

كانت الصَّرخة في كلّ أنحاء المغرب : « أن اقصدوا وادي المخازن للجهاد في سبيل الله » ، ولم يكن عند المسلمين أحلى من الاستشهاد ، فهذه التَّعبئة الشَّعبيَّة ستتكامل لتكون جيشاً ذا معنويات عالية ، وذا تصميم أكيد على النَّصر ، وزاد الموقف تفاؤلاً بالنَّصر أنَّ القيادة كانت في مستوى الطُّموح الشَّعبي ، والشُّعور الوطني ، والإحساس الإسلامي .

ففرار المتوكِّل (المسلوخ) ، واستنجاده بعدو البلاد ، والتجاؤه إلى قوى صليبية طامعة حاقدة ، أجَّج حماسَ النَّاس ، وضاعف شعورهم بالخطر على مستقبل البلاد ، ولم تنطَلِ عليهم ادعاءاته ،

---

(١) لاكوس : مرفأ على مئتي كيلو متر من العاصمة لشبونة ، انظر المصوّر ص : ٤٨ ، (خط سير البرتغاليين) .

(٢) وكان المتوكّل (المسلوخ) قد تنازل عنها للبرتغاليين قبل تنحيته عن المُلْك .

عندما كتب إلى أهل المغرب : « ما استصرخت بالنَّصارى[1] حتَّى عدمت النُّصرة من المسلمين ، وقد قال العلماء : إنَّه يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حقَّه بكل ما أمكنه » ، وتهدَّدهم قائلاً : ﴿ فإن لم تفعلوا ، فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾[2] .

فأجابه علماء الإسلام عن رسالته ، برسالة دحضت أباطيله ، وفضحت ركيك تأويله ، مما جاء فيها[3] : « الحمد لله كما يجب لجلاله ، والصلاة والسَّلام على سيدنا محمَّد خير أنبيائه وأرساله ، والرِّضى عن آله وأصحابه الَّذين هجروا دين الكفر ، فما نصروه ، ولا استنصروا به ، حتَّى أسَّس الله دين الإسلام بشروط صحَّته وكماله .

وبعد ، فهذا جواب من كافة الشُّرفاء والعلماء والصُّلحاء والأجناد من أهل المغرب :

لو رجعت على نفسك اللّوم والعتاب ؛ لعلمت أنَّك المحجوج والمصاب ...

وأمَّا قولك : في النَّصارى فإنَّك رجعت إلى أهل العدوة

---

(١) سمَّى النَّصارى « أهل العدوة » ، واستنكف عن تسميتهم نصارى ، (الاستقصا : ٧٥/٥) .

(٢) البقرة : ٢٧٩/٢

(٣) رسالة طويلة ، هي في الاستقصا من ص ٧٠ إلى ص ٧٨

واستعظمت أن تسميهم بالنَّصارى ، ففيه المقت الَّذي لا يخفى ، وقولك : رجعت إليهم حين عدمت النُّصرة من المسلمين ففيه محظوران يحضر عندهما غضب الرَّب جلّ جلاله ، أحدهما : كونك اعتقدت أن المسلمين كلَّهم على ضلال ، وأن الحقَّ لم يبق من يقوم به إلاَّ النَّصارى والعياذ بالله ، والثاني : أنَّك استعنت بالكفار على المسلمين .. قال عليه الصلاة والسَّلام : إني لا أستعين بمشرك .. الاستعانة بهم - بالمشركين - على المسلمين فلا يخطر إلا على بال من قلبه وراء لسانه ، وقد قيل قديماً : لسان العاقل من وراء قلبه ..

وقولك : فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، إيه أنت مع الله ورسوله ..

ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا ، حملتهم الغيرة الإسلاميَّة ، والحميَّة الإيمانية ، وتجدَّد لهم نور الإيمان ، وأشرق عليهم شعاع الإيقان ، فمن قائل يقول : لا دين إلا دين محمَّد ﷺ ، ومن قائل يقول : سترون ما أصنع عند اللِّقاء ، ومن قائل يقول : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾[1] .

وقد افتخرتَ في كتابك بجموع الرُّوم وقيامهم معك ، وعوَّلت

---

(١) العنكبوت : ١١/٢٩

على بلوغ المُلْك بحشودهم ، وأنّى لك هذا مع قول الله تعالى : ﴿ وَيَأْبَى اللهُ إلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافِرُونَ ﴾[1] » .

وعاين أهل « القصر الكبير » الهلكة لقرب البرتغاليين منهم ، واستبطؤوا وصول السُّلطان عبد الملك المعتصم بالله ، الذي كان بمرَّاكُش ، ولم يبق لهم إلا الفراز ، والتَّحصُّن بالجبال ، فقال الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي - وكان إذ ذاك بالقصر - لرجل من أصحابه : « نادِ في النَّاس أن الزموا بلادكم ودوركم ، فإنَّ عظيم النَّصارى مسجون حيث هو ، حتَّى يجيء السُّلطان من مَرَّاكُش ، وأن النَّصارى غنيمة للمسلمين ، ومن شاء فليعطِ خمسين أوقية في النَّصراني » ، يشير إلى مبلغ قيمة البرتغالي في الغنيمة ، فما انتقل النَّصارى من مكانهم ذلك أكثر من شهر ، حتَّى قدم السُّلطان عبد الملك المعتصم بالله ، وكان مريضاً[2] .

وكتب عبد الملك المعتصم بالله من مَرَّاكُش إلى سبستيان : « إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك ، وجوازك العدوة ، فإن ثَبُتَّ إلى أن نقدم عليك ، فأنت نصراني حقيقي شجاع ، وإلا فأنت كلب بن كلب »[3] ، فليس من الشجاعة ، ولا من روح الفروسية أن

---

(١) التّوبة : ٣٢/٨

(٢) الاستقصا : ٧٨/٥ ، وبلغت قيمة الأسير البرتغالي ماذكره الشّيخ .

(٣) الاستقصا : ٧٩/٥

ينقض على سكان القرى والمدن العُزّل ، ولا ينتظر مقابلة المحاربين .

فلما بلغه الكتاب غضب ، واستشار أصحابه : هل نقيم حتّى يلحق بنا مَنْ خلفنا مِنْ أصحابنا ؟

فقال المتوكّل (المسلوخ) : الرّأي أن نتقدّم ونملك تِطّاوين[1] والعرايش والقصر ، ونجمع مافيها من العُدّة ، ونتقوّى بما فيها من الذّخائر .

فأعجب هذا الرأي هيئة أركان سبستيان وقادة جنده الذين أشاروا برمي الكتاب عرض الحائط ، ولكن سبستيان تريث رغم إشارة رجاله .

وكتب عبد الملك المعتصم بالله لأخيه أحمد المنصور - وكان نائبه على مدينة فاس وأعمالها - أن يخرج بجند فاس وما حولها ، ويتهيّأ

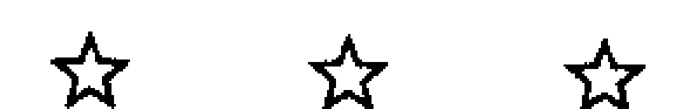
---

(١) تِطّاوين : مدينة صغيرة بناها الأفارقة القدامى على بعد نحو ثمانية عشر ميلاً من المضيق وستة أميال من البحر ، وهي جمع لكلمة تيط التي هي عين الماء الجارية ، جدّد بناءها قائد أندلسي جاء من فاس مع ملك غرناطة عندما سقطت هذه المدينة بيد الإسبان ، وكان هذا القائد محارباً مقداماً حقق أعمالاً بطولية خلال حروب غرناطة فدعاه البرتغاليون : المنظري نسبة إلى المنظر الذي هو أحد الحصون بناحية غرناطة ، وبدأ منها حرباً ضدّ البرتغاليين ، ضيّق الخناق على سبتة والقصر وطنجة ، وكان معه دائماً ثلاث مئة فارس كلهم غرناطيون من نخبة أهل غرناطة [وصف إفريقية : ٣١٨/١] .

(٢) الاستقصا : ٧٩/٥

للقتال ، ثم كتب إليه أيضاً في شأن مؤونة الجيش كتاباً يقول فيه : « .. أما بعد ، فإنا كتبناه إليكم من محلّتنا السّعيدة (بتامسنا) ، ولا زائد بحمد الله إلاّ الخير والعافية ، والنِّعم الضافية ، هذا وإنّه ساعة وصوله إليكم تخرجون من الخدام لعمالة مكناسة وقبيلة زمور وأولاد جلول من يفرض عليهم علف محلّتنا المنصورة ومؤونتها ، ويأمرهم برفعه وإبلاغه إلى مدينة سلا ، وقُدر ذلك صحفة شعير ، وعشرون مِدّاً من القمح لكل نائبة وصاع من السّمن ، وكبش لكل أربع نوائب ، ووكِّد عليهم رعاك الله أن يعتنوا بذلك ، وبإيصاله إلى المكان المذكور من غير عطلة ، وهذا ما وجب به الإعلام إليكم والله يرعاكم بمنّه ، والسّلام » .

وهكذا سار أهل مَرّاكُش وجنوبي المغرب بقيادة عبد الملك المعتصم بالله ، وسار أخوه أحمد المنصور بأهل فاس وما حولها ، وكان اللِّقاء قرب محلّة القصر الكبير .



قوى الطّرفين « البرتغالي والمغربي » :

الجيش البرتغالي :

١٢٥,٠٠٠ مقاتل ، وما يلزمهم من المعدّات ، والرواية الأُوربيّة تقلّل بعد الهزيمة عدد جيشها ، وتضخّم عدد جيش المغرب ، فهي

تتحدَّث عن ١٤,٠٠٠ راجل ، و ٢٠٠٠ فارس ، و ٣٦ مدفعاً ، مقابل : ٥٠,٠٠٠ راجل في الجيش المغربي و ٢٢,٠٠٠ فارس ، و ١,٥٠٠ من الرُّماة ، و ٢٠ مدفعاً .

ذكر أبو القاضي في (المنتقى المقصور) : عدد الجيش البرتغالي مئة ألف وخمسة وعشرون ألفاً[١] .

وقال أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في (مرآة المحاسن) : إن مجموعهم كان مئة ألف وعشرين ألفاً ، وأقل ما قيل في عددهم ثمانون ألف مقاتل[٢] .

كان مع الجيش البرتغالي : ٢٠,٠٠٠ إسباني ، ٣٠٠٠ ألماني ، ٧,٠٠٠ إيطالي .. وغيرهم عدد كبير .. مع أُلوف الخيل ، وأكثر من أربعين مدفعاً .. وكلٌّ هذه القوى البشريَّة والماديَّة بقيادة الملك الشاب سبستيان .

وكان معهم ، المتوكِّل المسلوخ بشرذمة تتراوح ما بين : ٣٠٠ ـ ٦٠٠ رجل على الأكثر[٣] .

(١ و٢) الاستقصا : ٥/٦٩ ، وفي الذخيرة السَّنية : ٦٠,٠٠٠

(٣) وهذا يدل على أن الشَّعب المغربي المسلم مستاء من استنجاد (المسلوخ) بالبرتغاليين ، وأن حججه الواهية لم تنطلِ على الشَّعب الَّذي أدرك خطورة الموقف ، وأن نتائج هذه المعركة يترتَّب عليها أمور هامة حاسمة مصيريَّة ، خصوصاً وقد تنازل (المسلوخ) عن سواحل المغرب لسبستيان ثمن نجدته له ، ولا يدري إنسان هل كان سيكتفي سبستيان بذلك لو انتصر في معركة وادي المخازن ؟!

الجيش المغربي :

بقيادة عبد الملك المعتصم بالله .

المغاربة المسلمون ٤٠,٠٠٠ مجاهد ، يملكون تفوُّقاً في الخيل .

مدافعهم أربعة وثلاثون مدفعاً فقط .

ولكن معنوياتهم كانت عالية جداً لثلاثة أسباب :

١ ـ ذاقوا حلاوة الانتصار على أعدائهم البرتغاليين المحتلِّين ، عندما انتزعوا منهم ثغوراً كانت محاطة بسياج من الأسوار العالية ، والخنادق العميقة ، والحصون المنيعة .

٢ ـ وهم يعلمون أنَّ نتيجة المعركة هذه يتوقف عليها مصير بلادهم كلِّها ، فسبستيان ومن معه يمثلون حركة توسُّع على حساب الإسلام وأراضيه ، وذكرى سقوط غَرْناطة وضياع الأندلس ـ أرضاً وسكاناً ـ حادثة لم تنسَ بعد ، إنَّها ماثلة قُبالة الشعب كُلِّه بلا استثناء .

٣ ـ ويمكننا القول : إن القوى الشَّعبيَّة هذه شحذ همتها أكثر ، ورفع معنوياتها أكثر ، ودفعها إلى الشهادة أو النصر أبو المحاسن يوسف الفاسي ، شيخ الشَّاذليَّة الجزوليَّة . ولذلك إن هذه المعركة الحاسمة في

تـاريخ الإسلام عـامـة ، والفـاصلـة في تـاريخ المغرب خـاصـة ، هي معركة القوى الشَّعبيَّة المشحونة إيماناً ، والتزامـاً بـالـدِّفـاع عن أرضهـا ووجودهـا ، بقيـادة الشيخ أبي المحـاسن يوسف الفـاسي ، هـذه القوى المتطوِّعة الملتحمة مع قيادتها وأميرهـا الملتزم أيضـاً بشعبـه ، المصمِّم على دفع الخطر الصليبي عن أرض المغرب ، بكل ما يملك من طاقات ، ولو كلَّفه ذلك روحه الَّتي بين جنبيه .

ودليل فعاليَّة هذه القوَّة الشَّعبيَّـة وأهميتهـا ، أن أبـا المحـاسن قـاد أحد جناحي الجيش المغربي ـ الميسرة على الأغلب ـ في هذه المعركـة ، وأبلى بلاء حسناً رائعاً ، طلب من خلاله الفوز بالشهـادة : « فوقع في ذلـك الجنـاح انكسـار تزحـزح بـه المسلـون عن مصـافِّهم[١] ، وحملت عليهم النَّصـارى دمَّرهم الله . وثبت من كان معـه ، إلى أن منـح الله المسلمين النَّصر ، وركبوا أكتاف العـدوّ يقتلون ويـأسرون ، والشَّيخ لم يتزلزل ، ولم يلتفت منذ توجَّـه إلى قتـالهم حتَّى فتح الله عليهم »[٢] . وتورَّع أبو المحاسن عن الغنيمة بعد الانتصـار العظيم ، وعفَّ عنهـا ، فلم يأخذ منها شيئاً كَبُر أم صَغُر .

---

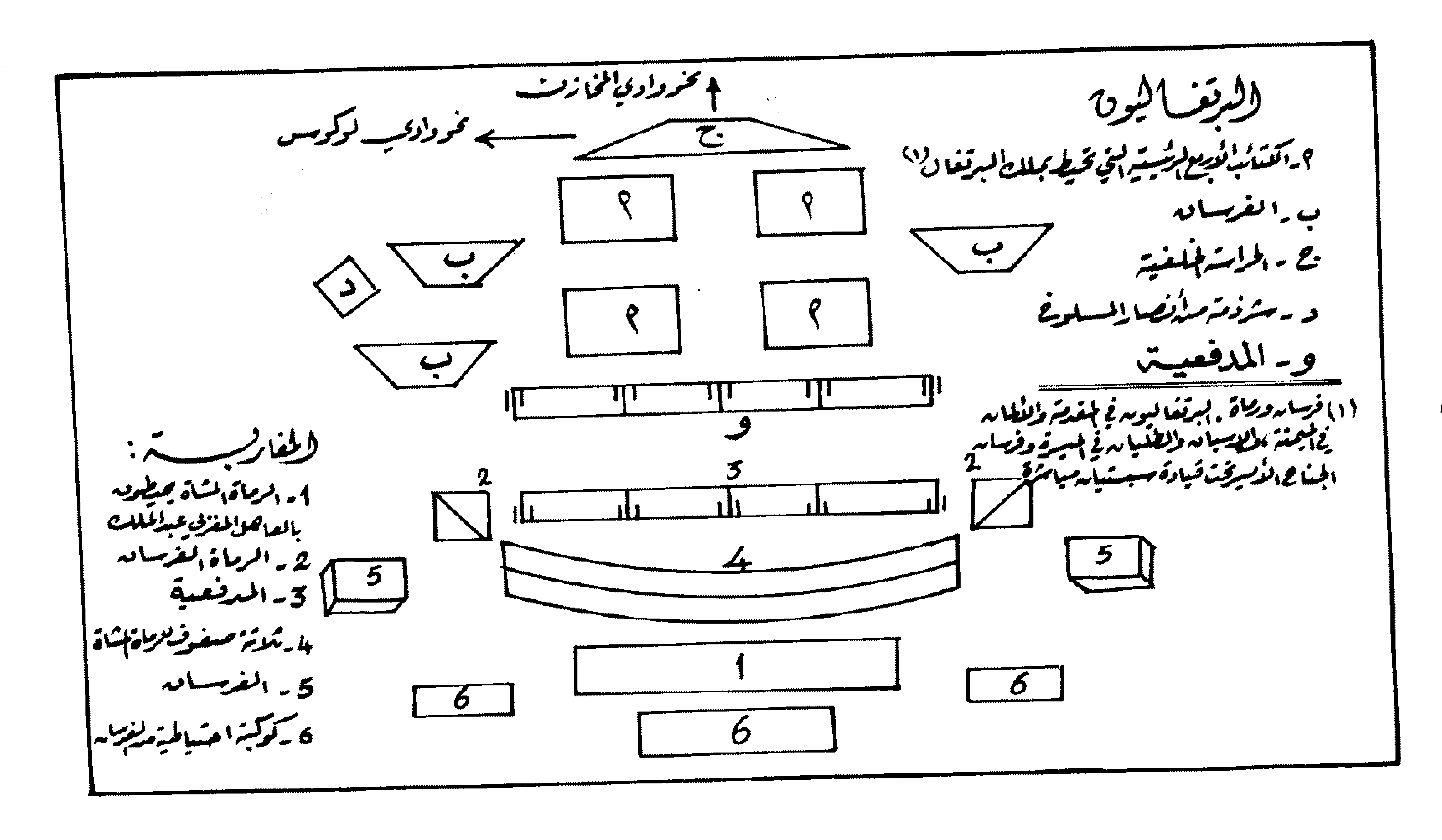
(١) والسبب غزارة مـدفعيـة وبنـادق البرتغـاليين ، وتسليـح القـوى الشَّعبيَّـة البسيـط ، حتى كان بعضهم يحمل المناجل فقط ، ولكن بقلوب عامرة بالإيمان .

(٢) الاستقصا : ٨٠/٥

وادي المخازن
معركة الملوك الثلاثة
ميدان المعركة(١)

جبل طارق
اسبانية
الجزيرة
مضيق جبل طارق
سبتة
البحر المتوسط
طنجة
تطوان
أصيلا
العرائش
الريف
شفشاون
القصر الكبير
وزان
سوق أربعاء الغرب
اكنول
المحيط الأطلسي
المهدية
القنيطرة
سلا
رباط الفتح
سبو
تازة
جرسيف
فاس
مكناس
الأطلس المتوسط
نهر الملوية
المحمدية
الدار البيضاء
آزمور
الجديدة
المقياس
كم
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠

(١) انظر ص ٦٠ حيث تشكيلات الجيشين


البرتغاليون
أ- الكتائب الأربع الرئيسية التي تحيط بملك البرتغال (١)
ب- الفرسان
ج- الرماة الخلفية
د- سرية من أنصار المسلوخ
و- المدفعية
(١) فرسان ورماة البرتغاليون في المقدمة والألمان في الميمنة والإسبان والطليان في الميسرة وفرسان الجناح الأيسر تحت قيادة سبستيان مباشرة
نحو وادي المخازن
نحو وادي لوكوس
المغاربة:
1- الرماة المشاة بحيطون بالعاهل المغربي عبد الملك
2- الرماة الفرسان
3- المدفعية
4- ثلاثة صفوف للرماة المشاة
5- الفرسان
6- كوكبة احتياطية من الفرسان

قُبَيل المعركة :

اختار عبد الملك المعتصم بالله القصر الكبير مقرّاً لقيادته ، وخصَّص من يراقب تحركات سبستيان وجيشه بدقَّة ، ثمَّ كتب إلى سبستيان مستدرجاً إياه إلى ميدان المعركة الَّتي اختار : « إنِّي قطعت للمجيء إليك ست عشرة مرحلة ، فهلاَّ قطعت أنت مرحلة واحدة لملاقاتي ؟ » ، فنصحه رجاله ، والمتوكِّل (المسلوخ) أن يبقى بأصيلا ، ليبقى على اتصال بالمؤن والعتاد والبحر ، ولكن تشوُّقه إلى الحرب وغروره بمن معه من قوات ومدفعية ، جعله يرفض نصيحة أركانه ، فتحرَّك يوم الثلاثاء ٢٩ تموز (يوليو) قاصداً القصر الكبير .

ويوم السَّبت ٢ آب (أغسطس) وصل الضِّفَّة الشَّماليَّة لوادي المخازن ، فشاهد طلائع الجيش المغربي المسلم متَّجهة نحوه في بسائط القصر الكبير .

ويوم الأحد ٣ آب (أغسطس) عبر سبستيان ومن معه جسر وادي المخازن ، حيث خيَّم قُبَالة الجيش المغربي . وفي جنح اللَّيل ، أمر عبد الملك المعتصم بالله أخاه أبا العباس أحمد المنصور في كتيبة من الجيش ، بنسف قنطرة جسر وادي المخازن ، إتماماً للخطَّة الَّتي وضعها ، فالوادي لا معبر له سوى هذه القنطرة .

☆ ☆ ☆

السَّاعاتُ الحرِجَةُ :

لقد حنَّكت التَّجارب عبد الملك المعتصم بالله ، فعزل عدوَّه عن أُسطوله بالشَّاطئ بمكيدة عظيمة ، وخُطّة مدروسة حكيمة ، عندما استدرج سبستيان إلى مكان حدَّده عبد الملك ميداناً للمعركة . وكان عزله عن أُسطوله محكماً عندما أمر عبد الملك بالقنطرة أن تهدم ، ووجَّه إليها كتيبة من الخيل بقيادة أخيه أحمد المنصور فهدمها .

جعل سبستيان مدفعيَّته في المقدِّمة أمام جيشه ، وفي الوسط أربع كتائب رئيسة تحيط به ، وجعل الفرسان على المجنبتَيْن ، مع حراسة خلفية ، وتجمعت شرذمة حول المتوكِّل في الميمنة[1] .

أما عبد الملك المعتصم بالله فقد جعل مدفعيته في المقدمة ، تليها مباشرة صفوف للرماة المشاة ، وجعل قيادته في القلب وعلى المجنبتين رماة فرسان والقوى الشَّعبيَّة المتطوِّعة . وامتازت خطة عبد الملك بوجود كوكبة احتياطية من الفرسان ستنقض في الوقت المناسب - وهي في غاية الرَّاحة - لمطاردة فلول البرتغاليين ، واستثمار النصر ، (انظر المخطط) .

☆ ☆ ☆

(١) أجرى عبد الملك اتصالات سريَّة عن طريق المراسلة مع بعض وجهاء هذه الشرذمة ، كي تنضم بصورة مفاجئة إلى جيش المسلمين ، عندما يتم الصِّدام بين الطَّرفين ، وتمَّ ذلك فعلاً ، إذ انضم سعيد بن فرج الدغالي مع عدد معه إلى عبد الملك عند الصَّدمة الأولى .

المعركة :

[صباح الاثنين ٣٠ جمادى الآخرة ٩٨٦ هـ = ٤ آب (أغسطس) ١٥٧٨ م] .

كان ذلك اليوم ، يوماً مشهوداً في تاريخ المغرب ، ويوماً خالداً في تاريخ الإسلام . وقف فيه السُّلطان عبد الملك المعتصم بالله خطيباً في جيشه ، مذكِّراً بوعد الله للصَّادقين المجاهدين بالنصر :

﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ، [الحج : ٤٠] .

﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أقْدامَكُم ﴾ ، [محمَّد : ٧] .

﴿ وَمَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ إنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكيمٌ ﴾ ، [الأنفال : ١٠] .

كما ذكَّر بوجوب الثَّبات :

﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا لَقِيتُمُ الَّذينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الأدْبارَ ﴾ ، [الأنفال : ١٥] .

﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثيراً لعَلَّكُم تُفْلِحُونَ ﴾ ، [الأنفال : ٤٥] .

وبضرورة النِّظام :

﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّـذينَ يُقَـاتِلُـونَ في سَبيلِـهِ صَفّـاً كَـأنَّهُم بُنْيـانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ ، [الصَّف : ٤] .

وذكر أيضاً بحقيقـة لا مراء فيهـا : إن انتصرت الصَّليبيَّـة اليوم ، فلن تقوم للإسلام بعدها قائمة .

ثمَّ قُرئت آيـات كريمـة من كتـاب الله المجيـد ، بـأصـوات نـديَّـة اشتاقت للشهادة :

﴿ إنَّ اللهَ ٱشْتَرَى مِنَ الْمُـؤْمِنينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْـوالَهُم بـأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّـةَ يُقـاتِلُونَ في سَبيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَعْـداً عَلَيْـهِ حَقّـاً في التَّـوراةِ والإنْجيلِ وَالقُرآنِ وَمَنْ أوْفَى بِعَهْـدِهِ مِنَ اللهِ فَـٱستبشِروا بِبَيْعِكُمُ الَّـذي بايَعْتُم بِهِ وذلكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ ، [التَّوبة : ١١١] .

وهكـذا .. دقَّت سـاعـة النَّصر أو الشَّهـادة ، وحـانت لحظـات رخصت فيها الأرواح طمعاً بثواب الله وعظيم مكانـة الشَّهيـد عنـده ، إنَّهـا معركـة .. بين فئـة تقـاتل عـدواً يطمـع بـالأرض ، واستئصـال الإسلام وأهله أينما كان وكانوا ، فالشَّهادة دون ذلك مطلب وعقيـدة ، وبين فئة حـاقـدة ، أعمـاهـا الطمع والجور ، وحب المغـامرة للمغـامرة نفسها ، ولمجد عرش يتباهى به بين ملوك أوربة وأباطرتها .

أمَّا الحضارة ، المدنيَّة ، الإنسانيَّة ، الرَّخاء ، التَّسامح ، والعدالة .. فهي معاني عرفها العالم في فتوحات عرفت باسم « الفتوحات العربيَّة الإسلاميَّة » ، وما عرفها في حروب أُوربة الصَّليبيَّة ، ولا في أثناء كشوفاتها الجغرافية[1] .

ولم يألُ القسسُ والرُّهبان جهداً في إثارة حماس جند أوربة الَّذين يقودهم سبستيان ، مذكِّرين أن البابا أحلَّ من الأوزار والخطايا أرواح من يلقون حتفهم في هذه الحروب التي اتَّسمت بطابع الحروب الصَّليبيَّة .

وانطلقت عشرات الطَّلقات النَّاريَّة من الطَّرفين كليهما إيذاناً ببدء المعركة .

ورغم تدهور صحة السُّلطان عبد الملك المعتصم بالله ، الَّذي رافقه المرض وهو في طريقه من مَرَّاكُش إلى القصر الكبير ، خرج بنفسه ليرد الهجوم الأوَّل ، منطلقاً كالسَّهم شاهراً سيفه يفتح لجنده الطريق إلى صفوف البرتغاليين ، ولكن المرض غالبه فغلبه ، فعاد إلى محفَّته ، وما هي إلاَّ دقائق حتَّى لفظ أنفاسه الأخيرة ، وأطبق أجفانه وهو موقن

---

(١) ليس عجباً أن النهضة الأوربية الحديثة بدأت من الأندلس وجنوبي فرنسة وإيطالية وصقلية حيث وصل الفتح العربي الإسلامي ، وكل العجب في نتائج الاستعمار الأوربي الذي ترك السكان حيث وصل يعانون الفقر والجهل والمرض ، وبالتالي البؤس والشقاء والتَّخلُّف .

بالنَّصر الَّذي وعد الله بـه عبـاده الصَّادقين المؤمنين المجاهـدين . وأمرُ هذا الرَّجل عجبٌ في الحزم والشَّجاعة ، لقد مـات وهو واضع سبـابتـه على فمــه ، مشيراً أن يكتمـوا الأمر حتَّى يتمَّ النَّصر ، ولا يضطربــوا ، وكذلك كان ، فلم يطَّلع على وفاته إلا حاجبـه رضوان العلج ، وأخوه أحمد المنصور ، وصار حاجبه يقول للجند : « السُّلطان يأمر فلانـاً أن يـذهب إلى موضع كـذا ، وفلانـاً أن يلـزم الرَّايـة ، وفـلانـاً يتقـدَّم ، وفلاناً يتأخر »[1] .

ومــال أحمــد المنصـور بمقــدمــة جيش المغــاربــة على مـؤخرة البرتغـاليين ، وأوقـدت النـار في بـارود البرتغـاليين ، واتجهت مـوجـة مهاجمة ضدّ رماتهم أيضاً ، فلم يقف البرتغاليون لقوة الصَّدمة ، فتهالك قسم منهم صرعى ، وولّى الباقون الأدبـار قـاصـدين قنطرة نهر وادي المخـازن ، فـإذا هي أثر بعـد عين ، نسفهـا المسلمـون بــأمر سلطــانهم عبد الملك المعتصم بـالله ، فـارتموا بـالنهر ، فغرق من غرق ، وأُسر من أُسر ، وقتل من قتل .

وصُرع سبستيــان ، وأُلـوف من حـولــه ، بعــد أن أبــدى صمـوداً وشجاعة تذكر ، حتَّى زعم مؤرخون النصارى الأوربيون أنَّه هلكَ تحته في ذلك اليوم أربعة أفراس . وزعموا أيضاً أنَّه قـال لجنـده : « إن تروني

---

(١) الاستقصا : ٥/٨٠

تروني أمامكم ، وإن لم تروني فأنا في وسط العدو أقاتل عنكم »[1] ..
صُرِعَ بسيف حملته يمنى مجاهد مسلم ، صمَّم على الشَّهادة أو قتله .

وحاول المتوكِّل ـ رمز الخيانة ـ الفرار شمالاً ، فوقع غريقاً في نهر وادي المخازن ، ووجدت جثَّته طافية على الماء ، فسلخ وملئ تبناً وطيف به في أرجاء المغرب حتَّى تمزَّق وتفسَّخ .

دامت المعركة أربع ساعات وثلث السَّاعة ، ولم يكن النَّصر فيها مصادفة ، بل كان لمعنويات عالية ، ونفوس شعرت بالمسؤولية ، ولخطة مدروسة مقرَّرة محكمة ، فما هي إلاَّ /٢٦٠/ دقيقة فقط ومصير المغرب الأقصى يتقرَّر إلى الأبد عربياً مسلماً .

جاء في (درة السُّلوك) لأحمد بن القاضي ، وهو معاصر لأحداث المعركة (مخطوطة بدار الوثائق بالرَّباط ، د ١٤٢٨ ، ص ١٤)[1] :

وَابنُ أَخيهِ[2] بالنَّصارَى ٱعتَصَما	وَصارَ يستنجدُهُم لِمَن سَمَا
أجابَهُ اللَّعينُ بستيانُ[4]	بجيشِهِ وَمَعَهُ الأَوثانُ
وَعَددُ الجيوشِ الَّذي جَمَعَا	ينيفُ عن مائةِ أَلْفٍ سُمِعَا

---

(١) الاستقصا : ٥/٨٤

(٢) دعوة الحق ، السَّنة ١٩ ، العدد ٨ ، رمضان ١٣٩٨ ، آب (أغسطس) ١٩٧٨ ، ص ٥٦ .

(٣) إشارة إلى المتوكل (السلوخ) .

(٤) بستيان (لضرورة الوزن) ، فهو سبستيان .

فقيَّضَ اللهُ لَـــهُ المنصُـــورا[١] ... ملكاً شجـاعـاً أَسَـداً هَصُــورا

فخلَّصَ الإسلامَ من يَدِ اللَّعينْ[٢] ... بِصَبْرِهِ على لِقَـــاءِ المشركينْ

مـــا مِنْهُمُ إلاَّ قَتيـــلٌ وَأَسيرُ ... في ساعـةٍ مِنَ الزَّمـانِ[٣] ذا شهيرُ

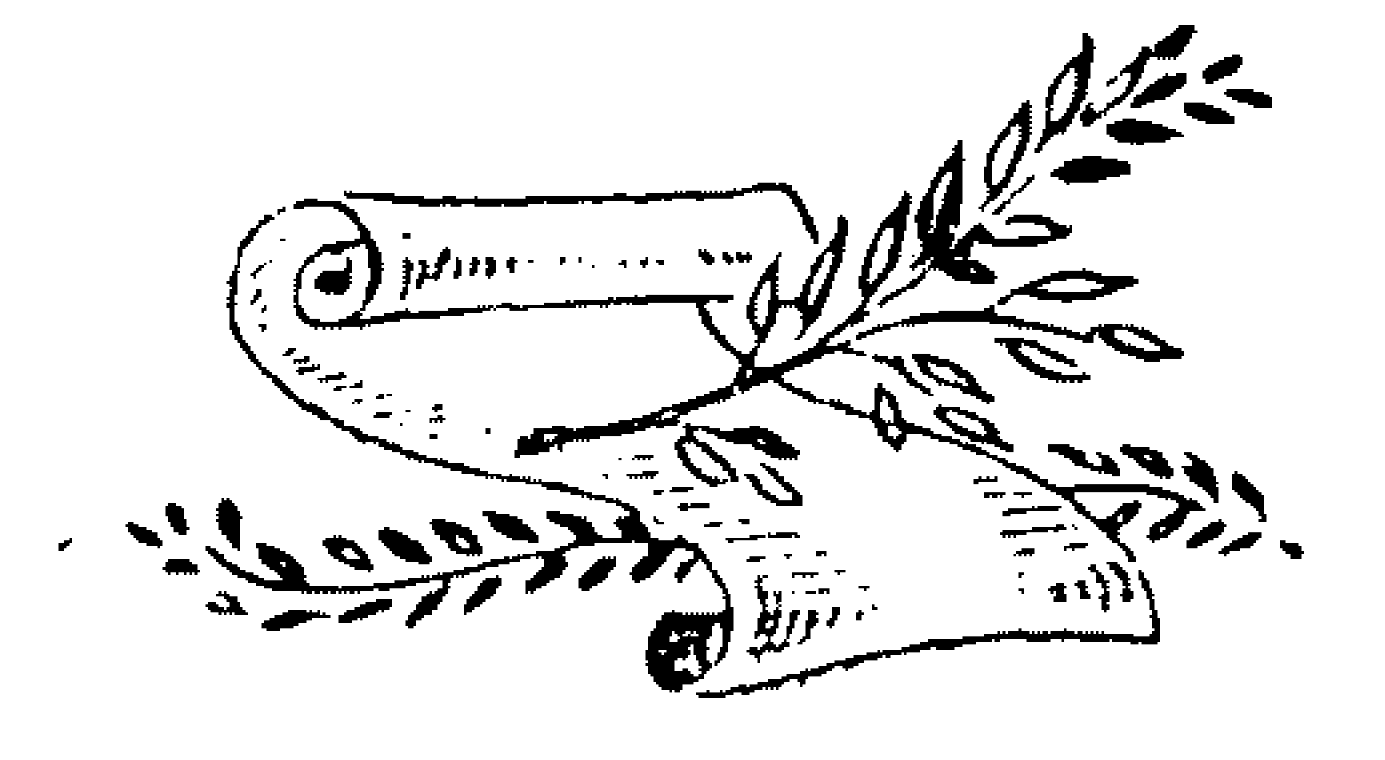
مــاتَ بهـــا بستيـــانُ اللَّعينُ ... فمـــا لَـــهُ على الرَّدى معينُ

ثمَّ محَمَّـــدُ[٧] الَّـــذي أَتى بِـــهِ ... مـاتَ غريقـاً[٤] يـومـه فـانتَبِـهِ

لحكمَـــةِ اللهِ العظيم القـــاهِرِ ... أفـــادَهُم وَزَيَّنَ الْمَنَـــابِرِ

بـــذكرِ عمِّـــه أَبي العَبَّـــاسِ[٥] ... الحـازِمِ الرَّأيِ شـديـدِ البـاس

نَجْلُ الرَّسولِ المصطفى المختـارِ[٦] ... بـهِ زَهَـا المغربُ على الأَقْطـارِ[٧]



---

(١) أحمد المنصور ، أخو عبد الملك المعتصم بالله ، الذي قاد المعركة بعد وفاة أخيه . وكان جدير بالشاعر أن يذكر أيضاً عبد الملك الذي هيأ للمعركة وخطط لها .

(٢) اللّعين : سبستيان .

(٣) إشارة إلى قصر مدة المعركة ، أربع ساعات وثلث السّاعة فقط .

(٤) محمّد ، هو المتوكّل (المسلوخ) ، محمد بن عبد الله الغالب (انظر جدول أُسرة السّعديين) .

(٥) في نهر وادي المخازن .

(٦) أبو العباس أحمد المنصور بالله السّعدي (الذّهبي) .

(٧) إشارة إلى نسب السّعديين الشريف ، وانتهائه إلى آل البيت رضوان الله عليهم .

(٨) بردّه الغزو الصّليبي ، وانتصاره الباهر في معركة وادي المخازن .

خَاتِمَةٌ

نتائج معركة وادي المخازن

☆ تبخّرت أحلام الصّليبيّة ، عندما أوقفت معركة وادي المخازن (الملوك الثّلاثة) خطر الاستعمار البغيض ، وحدّت من حركة توسّعه على حساب الإسلام وأراضيه .

بويع أحمد المنصور بالله (الذّهبي) بعد انتصار وادي المخازن ، بعد الفراغ من القتال بميدان المعركة ، وذلك يوم الاثنين ٣٠ جمادى الآخرة سنة ست وثمانين وتسع مئة هجرية ، الموافق الرابع من آب (أغسطس) سنة ثمان وسبعين وخمس مئة وألف ميلادية ، فكتب إلى القسطنطينيَّة مقرّ السّلطنة العثمانيَّة ، يعلم السُّلطان مراد خان الثالث العثماني[1] ، وإلى سائر ممالك الإسلام المجاورين للمغرب ، يعلمهم بما أنعم الله عليه من نصر حاسم عظيم ، وإخفاق الغزو البرتغالي الصَّليبي

---

(١) مراد بن سليم الثاني ، ت : ١٠٠٣ هـ = ١٥٩٥ م ، [تاريخ الدَّولة العليَّة العثمانيَّة ، ص ٢٦٠] .

لأرض المغرب ، واستئصال شأفته ، فوردت عليه الرُّسل من سائر الأقطار مهنِّئين مباركين له ، بما فتح الله عزَّ وجلَّ على يده .

وكان أول الوفود من أقرب الأقطار ، من الجزائر .

ثم جاءت رُسُل ملك البرتغال الجديد « الرِّيكي »[1] ، تحمل هدية عظيمة ، ورسل ملك الإسبان فيليب الثَّاني تحمل هديَّة أعظم .

ثم قدمت رسل السُّلطان العثماني ومعهم هديَّته .

وبعدها جاءت رسل ملك فرنسة .. « والأرسال تصبح وتمسي على أعتاب تلك القصور »[2] .

☆ ☆ ☆

أمَّا في البرتغال :

لما نُعي سبستيان إلى البرتغاليين ، لم يصدِّقوا خبر موته بسهولة ، فقالوا : لا ، إنَّه مأسور فقط ، ولما سُلِّمت جثَّته بالطُّرق

---

(١) حكم البرتغال بعد مقتل سبستيان ، الكردينال الهرم « الرِّيكي » الَّذي توفي سنة ١٥٨٠ م ، فتنازع على العرش طامعون عدّة : فيليب الثَّاني ملك إسبانية خال الملك الرَّاحل سبستيان ، ودوقة براغونتا ، ودوق سابويا ، ورئيس دير كراتو ، الَّذي ينتمي إلى أسرة أبيس المالكة . وانتصر فيليب الثَّاني واقتنص العرش ، واعترف له مجمع الكورتيس المنعقد في Thomar سنة ١٥٨١ بذلك ، علماً أنَّه تزوج ملكة البرتغال أيضاً (الاستقصا : ٥/٨٥) .

(٢) الاستقصا : ٥/٩٢

الرَّسميَّـة قـال الشَّعب : إن ملكهم لم يمت ، وإن لـه عـودة مـؤكَّـدة في المستقبل ، وأمسى البرتغاليون يسمرون بـأخبـاره ، ولا تزال البرتغـال تـذكره ، ولـه ذكر في أشعـار الشُّعراء الأوربيين على اختـلاف جنسياتهم .

يقول لويس ماريَّة ـ المؤرِّخ البرتغالي ـ واصفاً نتـائج المعركـة : « وقد كان مخبوءاً لنا في مستقبل الأعصار ، العصر ، الَّـذي لو وصفتـه ـ كما وصفـه غيري من المؤرِّخين ـ لقلت : هو العصر النَّحس البـالـغ في النُّحوسة ، الَّذي انتهت فيه مدَّة الصَّولـة والظَّفر والنَّجـاح ، وانقضت فيه أيَّام العناية من البرتغال ، وانطفأ مصباحهم بين الأجناس ، وزال رونقهم ، وذهبت النَّخـوة والقـوَّة منهم ، وخلفهـا الفشـل ، وانقطـع الرَّجاء ، واضمحل إبـان الغنى والرِّبح ، وذلـك هو العصر الَّـذي هلـك فيه سبستيان في القصر الكبير من بلاد المغرب »[1] .

وافتـدى الكردينـال « الريكي » جثمان سبستيـان[2] ، ونقلـه إلى سبتة ، فبقي هنالك إلى وفـاة الريكي ، وتولِّي ملـك إسبـانيـة فيليب الثَّاني عرش البرتغال مع عرش إسبـانيـة ، فنقل الجثمـان من سبتـة إلى لشبونة .

---

(١) الاستقصا : ٥/٨٥ ـ ٨٦

(٢) أرسل الكردينال الريكي وفداً رسمياً من البرتغال ، تقـدَّم بطلب بهـذا الصَّـدد للسلطـان أحمـد المنصور .

كما التمس الكردينـال الريكي من أبي العبـاس أحمـد المنصـور (الذّهبي) فداء الأسرى ، فأجابه إلى طلبه ، وحصل بسبب ذلك على أموالٍ طـائلـة ، وذكر بعض المـؤرخين ، أن الأسـارى لما ذهبـوا إلى بلادهم ، قال لهم الريكي : لِمَ لَمْ تـأخـذوا التطـاوين والعرائش والقصر قبل أن يصل ملـك المغـاربـة ؟ فقـالـوا لـه : امتنـع من ذلـك الأمير سبستيان ، فأمر بهم فأُحرقوا جميعاً .

☆ ☆ ☆

مِنْ أسْبَابِ نَصْرِ وَادِي المَخَازِنِ :

يشهد التاريخ بالعظمة والحكمة والشجاعة ، لعبـد الملـك المعتصم بالله ، ولأخيه أحمد المنصور (الذّهبي) ، ولحاجبه رضوان ، كما يشهـد أيضـاً لعـدد من القـادة ، أبرزهم : أبو علي القوري ، والحسين العلج ، ومحمد أبو طيبة ، وعلي بن موسى ، وأخوه أحمد بن موسى ، الّـذي كان عاملاً على العرائش .

ولن ينسى التّـاريخ الشيخ الجليل ، المجـاهـد الكبير أبـا المحـاسن يوسف الفاسي ، باعث روح الجهاد في القوى الشّعبيّـة ، الّـذي شـارك في المعركة مخلصاً ، لم يتزلزل عنـد الصّـدمـة الأُولى ، ولم يلتفت خلفـه

منذ توجَّه إلى قتـال الغزاة ، ومع البلاء العظيم ، تورَّع عن الغنيمـة فلم يلتمس منها شيئاً[(١)] .

وتنجلي المعركـة عن نصر خـالـد في تـاريخ الإسلام ، وعن موت ثلاثة ملوك :

١ ـ صليبي مجندل ، هو سبستيان ، ملك أعظم إمبراطوريـة على الأرض ـ بلا منازع ـ آنذاك .

٢ ـ وخـائن غريق مسلوخ ، هو محمـد المتوكِّـل ، الـذي استخرج الغوَّاصون جثَّته من نهر وادي المخازن ، وَحُشي جلده تبناً ، وطيف به في مَرَّاكُش وغيرها من البلاد .

٣ ـ وشهيد بطل فاضت روحه ، هو عبـد الملـك المعتصم بـالله ، والَّـذي سيبقى التَّـاريخ يفخر بـإخـلاصـه ، وحكمتـه ، وشجـاعتـه ، وفروسيَّته .

ومن أسباب النَّصر[(٢)] :

١ ـ آلام المسلمين من سقوط غَرْناطـة ، وضيـاع الأنـدلس ، إنَّهـا

---

(١) أخذ الناس الغنيمة بعد المعركـة من غير ضـابـط ، ولم تقسم على الوجـه الشَّرعي ، ولعل سبب ذلك موت السُّلطان عبد الملك المعتصم بالله مع بدء المعركة ، وانشغال أخيه أبي العبـاس أحمـد المنصور الذَّهبي بالبيعة وجمع الكلمة ، ولم يهتم بأمر الغنيمة ، وتمَّ له ماقصد .

(٢) عن « دعوة الحق » ، ص ٩٤ (بتصرُّف) .

جراح لم تندمل ، ولم تنسَ بعد ، ووحشية محاكم التَّفتيش وصور جرائمها الَّتي ارتكبت ماتزال ماثلة في الأذهان .

٢ ـ الخطَّة المحكمة المرسومة بدقَّة ، واستدراج الخصم إلى ميدان تجول فيه الخيل وتصول ، مع قطع طرق تموينه وإمداده ، ثمَّ نسف القنطرة الوحيدة على نهر وادي المخازن ، « فلم ينج من البرتغاليين والأُوربيين إلا نزر يسير ، وشرذمة قليلة ، لتهافتهم في النَّهر ، ووقعوا في أسر المغاربة » .

٣ ـ المشاركة الفعَّالة للقوى الشَّعبيَّة بقيادة أبي المحاسن يوسف الفاسي ، لقد خاضت هذه القوى غمار المعركة بإيمان عظيم بالشَّهادة ، وبروح معنوية عالية لتحقيق النَّصر ، جعلت بعض القبائل تحارب الجيش البرتغالي الغازي بالمناجل والعصي .

٤ ـ القدوة والأسوة المثاليَّة الَّتي أعطاها عبد الملك المعتصم بالله عند الهجوم الأوَّل قبيل وفاته بدقائق[1] ، وإتمام أخيه أحمد المنصور مابدأه الرَّجل قبيل وفاته .

٥ ـ تفوُّق المدفعيَّة المغربيَّة على مدفعية الجيش البرتغالي ، مع

---

(١) وفي رواية (الاستقصا ٨٣/٥) : دسَّ المتوكِّل المسلوخ السُّمَّ لعمِّه عبد الملك المعتصم بالله قبل اللِّقاء ، ليموت قبل المعركة ، فتقع الفتنة في معسكر المغاربة ، ولكن جيش البرتغاليين لم تكن له مؤونة يطاول بها ، فألجأهم ذلك إلى سرعة المناجزة .

مهارة العثمانيين[١] والأندلسيين[٢] في الرَّمي ، والتَّصويب بدقَّة .

٦ ـ وكانت خيل المسلمين المغاربة أكثر من خيل النَّصارى ، ويلائمها السَّهل الَّذي انتقاه السُّلطان عبد الملك المعتصم بالله ، فكانت عاملاً يذكر في تحقيق النَّصر واستثماره ، عندما طوَّقت المنهزمين قرب نهر وادي المخازن .

٧ ـ كما ساعد في تحقيق النَّصر ، أن سبستيان كان في جانب ، ومستشاروه وكبار رجالاته في جانب آخر .

ولا يمكن نسيان ، أن وعي الشَّعب لأهداف الغزو البرتغالي ، على أنه صراع صليبي حاقد ، زاد من شجاعة الجند المجاهدين ، ووحَّد الصَّف ، وجعل قيادته ملتحمة التحاماً كاملاً مع الشعب ، والشعب بكل طاقاته الرُّوحيَّة ، وإمكاناته المادية مع قيادته .

☆ ☆ ☆

---

(١) أرسلت الدَّولة العثمانيَّة نجدة للسُّلطان الشَّرعي ـ عبد الملك المعتصم بالله ـ والتقى الترك والبرتغال بالقرب من محل يقال له : القصر الكبير ، جنوبي مدينة طنجة ، وبعد تمام النَّصر وإعادة الأمن والسَّكينة إلى ربوع مَرَّاكُش عادت الجيوش العثمانيَّة حاملة ماأُغدق عليها من الهدايا ، وبذلك دخلت مملكة مراكش ضمن دائرة نفوذ الدَّولة العثمانية ، وصار شمال إفريقية بأجمعه لها تماماً ، أو خاضعاً لنفوذها ، [تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢٦٠] .

(٢) الَّذين هُجِّروا إلى الشمال الإفريقي .

وَمِنْ نَتَائِجِ معركةِ وَادِي الْمَخازِنِ :

شبِّهت معركة وادي المخازن (الملوك الثلاثة ـ القصر الكبير[1]) بمعركة بدر الكبرى ، وهذا التَّشبيه يدل على أهميَّة النَّتائج الَّتي ترتَّبت عليها ، ومن هذه النَّتائج :

١ ـ فداء الأسرى درَّ أموالاً طائلة على بيت مال السَّعديِّين ، فاستفيد منها ووظِّفت في تنمية الصِّناعات ، والمنشآت العمرانيَّة .

٢ ـ وقويت ثقة الشَّعب المغربي بنفسه ، فسادت فترة استقرار ورخاء ، وازدهار في العلوم والفنون .

٣ ـ واكتسبت المغرب مكانة دوليَّة عالميَّة ، تمثَّلت بعض جوانبها بالسَّفارات والبعثات التي أمَّت مَرَّاكُش .

٤ ـ وكانت نتائج المعركة ضربة قاضية للبرتغال ، فلم تقم لها قائمة بعدها .

٥ ـ البدء بالتفكير والتخطيط ـ على مستوى أُوربة ـ بترك سياسة الحديد والنَّار ، للبدء بغزو فكري ثقافي ، بعد إخفاق الغزو الصَّليبي العسكري في المشرق العربي وفي مغربه .

☆ ☆ ☆

(١) انظر في نهاية هذا الكتاب قصة بناء بلدة « القصر الكبير » .

يقول الأستاذ أحمد معنينو[1] ، في مقالة تحت عنوان « ذكرى النَّصر والظَّفر ، معركة وادي المخازن » :

« رجعت ذاكرتي إلى ما بين سنوات ١٩٣٨ ـ ١٩٤٠ م ، حيث كنت مقيماً بتطوان عاصمة المنطقة الخليفية إذ ذاك ، فراراً من كابوس المستعمر الفرنسي الغاشم ، تذكرت ظهور حركة غريبة ومشبوهة مدهشة ، صدرت من بعض البرتغاليين ، وأظنهم من رجال الكنيسة ، يطالبون الحكام الإسبان بالسَّماح لهم في بناء (أقواس النَّصر) بالأرض المجاورة للوادي ، حيث توجد هناك مقبرة ظنُّوا أنَّها قبور إخوانهم المهاجمين . وقد استهوت الفكرة بعض الإسبانيين ، أنصار الصَّليب ، فكتبت صحفهم تؤيِّد هذه الفكرة المعوجَّة ، وقامت ضجَّة وزوبعة ، وكتبت الصُّحف الوطنيَّة يومئذ ، تردّ على هذه التُّرَّهات قائلة : إن فكرة بناء أقواس النَّصر بجانب موقع المعركة ، يجب أن تصدر ممَّن فاز بالنَّصر والظَّفر ، وهم المغاربة !! لا ممَّن وقعوا في الخزي والعار ، والذُّل والقهر ؛ بل الفناء والدَّمار ، والمؤرِّخون سواء منهم المغاربة أم الأجانب متَّفقون على انتصار القوَّة المغربيَّة والدَّولة المغربيَّة ، واضمحلال القوَّة البرتغاليَّة ومن يؤازرها .

أخذت القضيَّة وقتاً ليس بالقصير في الأخذ والرَّد ، إلى أن صدر

---

(١) دعوة الحق ، آب (أغسطس) ١٩٧٨ م .

إذن رسمي للسَّادة عدول مدينة القصر الكبير ، فتوجَّه وفد منهم صحبه رجال السُّلطة الإسبانيَّة ، وبعض هؤلاء المجانين ، لنبش بعض القبور ، وفعلاً كشف البحث أنَّ سكان هذه القبور من المجاهدين المسلمين ، الَّذين استشهدوا في المعركة ، ووجدت الجثث مستقبلة القِبْلَة في وضعها ، وبذلك سقطت ادعاءات الباطل ، وبهت الَّذي كفر ، وانتهت خرافة بناء (أقواس النَّصر) ، ويا لها من خساسة ، ورغم هذه المهزلة ، فإنَّ القوم لم يستسلموا وبيدهم عون الإسبان .

وسيبقى التَّاريخ ذاكرة البشرية وحافظته الَّتي لاتنسى ، وواعظها الأمين النزيه .

لذلك ، سيبقى يذكر عبد الملك المعتصم بالله الَّذي مات وهو يدافع عن كرامة أُمَّة ، وعزَّة دين ، وأرض وطن ، وسيبقى يذكر شعباً أثمرت أغصان رماحه زهر النَّصر ، وقطفت سيوفه ثمرات جهده نصراً .

وسيبقى يذكر في الوقت ذاته الخائن محمَّد المتوكِّل المسلوخ ، غارقاً مغلوباً ، مهاناً مذموماً ، نتيجة حتميَّة طبيعيَّة للخونة ومن هان عليهم وطنهم ، ورقَّ عندهم دينهم ، وهان شرف العقيدة لديهم » .

☆ ☆ ☆

وثيقتان جديدتان

عن ذيول موقعة وادي المخازن

رسالة من الشَّيخ رضوان بن عبد الله الجنوي الفاسي ، الَّذي عاصر في أُخريات عمره[1] صدر دولة أبي العباس أحمد المنصور السَّعدي ، والَّذي كان نموذجاً لامعاً في معرفة الحديث الشَّريف ، والتزام السُّنَّة ومجانبة البدعة ، شديد الشكيمة على المنحرفين ، غير مكترث بهم . وقد كانت صرامة الشَّيخ رضوان في مقاومة الانحرافات ، هي الحافز له على مخاطبة العاهل السَّعدي بالوثيقَتَيْن التَّاليتَيْن[2] .

وهو في الرِّسالة الأُولى يثير انتباه المنصور (الذَّهبي) إلى بلبلة البرتغاليين بعد انهزامهم في معركة القصر الكبير (وادي المخازن) ، ويلح على انتهاز هذه الفرصة لاسترداد المدائن الَّتي يستولي عليها المنهزمون : طنجة ، وأصيلا ، وسبتة ، حتَّى يتجاوب الحكم مع تطلُّعات الرَّعيَّة الَّتي تترجمها هذه الرِّسالة الأُولى .

---

(١) ت : ٩٩١ هـ / ١٥٨٣ م .

(٢) مصدرها التَّرجمة الَّتي أَلَّفها تلميذه أبو العباس أحمد بن موسى المرابي الأندلسي ثم الفاسي « تحفة الإخوان ، ومواهب الامتنان ، في مناقب سيدي رضوان » ، ومخطوطتها الأصلية بالخزانة العامة تحت رقم ١٥٤ ك ، حيث ترد الرسالة الأُولى ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤ ، والثَّانية ص ٤٢٧ ـ ٤٢٩

أمّا الرِّسالة الثَّانية فينقد فيها سياسة العاهل ذاته في قبول الفداء - بالمال - للأسرى البرتغاليين ، على حين أن المسلمين والمسلمات بأيدي الكفار في غاية العذاب والإهانة ، والفرصة مواتية أن لا يبقى في أيدي الأعداء واحد من هؤلاء المؤمنين الَّذين يقع فداؤهم على المسلمين ، وفي إلحاح بالغ تحض الرِّسالة على العمل لفك الأسرى بقدر الجهد .

☆ ☆ ☆

الرِّسالة الأُولى :

« بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، وصلى الله على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلِّم تسليماً .

الحمد لله ، من عبد الله رضوان بن عبد الله ، إلى أمير المؤمنين السُّلطان أبي العباس أحمد ابن موالينا وساداتنا الشُّرفاء ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

وبعد : أعاننا الله وإياكم على رعاية ودائعه ، وحفظ ما أودعنا من شرائعه ، وثبتنا على حسن القيام به كما أمر ، آمين ، فالحمد لله ثمَّ الحمد لله على نعمه الشَّاملة ، وعلى ما مَنَّ به من نصر الإسلام وأهله ، وخذلان الكفر وأهله ، والظَّفر منهم ، والتَّمكن من رقابهم ، إذ

لا نعمة أعظم من إعزاز الدّين ، وذلّ أعدائه الكافرين ، زادكم الله في ذلك حرصاً وغبطة ، وولّعكم فيه حتّى تصير لكم حرفة وخطّة ، إذ كانت حرفة جدّكم ﷺ وأصحابه الكرام ، فقد قطعوا الأعمار في قتال الكفّار ، وأنفقوا الأموال وبذلوا النُّفوس في رضاء محبوبهم ، ولم يزالوا كذلك حتّى استقام الدِّين ، متّبعين وسالكين سُنَّة سيد المرسلين ، رضي الله عنهم أجمعين .

وأنتم ـ نصركم الله ـ خذوا في ذلك بغاية جهدكم ، ولا تتراخوا عن ما ندبكم إليه المولى تبارك وتعالى ، فإن للإسلام صولة لا يقوم لها شيء ، فقد قال تعالى : ﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ فَلا تَهِنُوا وتَدْعوا إلى السَّلم وأنتم الأعلَون والله معكم ، ولن يَتِرَكُمْ أعمالكم ﴾[2] ، والمعيَّة مِن الله تقتضي النَّصر على الأعداء والظَّفر بالبغية ، وقال تعالى : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الَّذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكَّل المؤمنون ﴾[3] .

وإلى هذا فالله الله في الحزم وإمضاء العزم ، وهو ما ظهر لرعيتكم من انتهاز هذه الفرصة الممكنة في هذا الوقت ، من الحركة

---

(١) آل عمران : ١٣٩/٣

(٢) محمّد : ٣٥/٤٧

(٣) آل عمران : ١٦٠/٣

لمدائن الكفّار الّتي هي طنجة وأصيلا وسبتة ، فإنّهم في هذه السّاعة في دهش وخـزي وخـذلان بمـا أمكن الله منهم ، ولا أظن ـ نصركم الله ـ مثل هذا يخفى عليكم حتى نحتاج أن نذكركم به .

وقـد بلغني عن بعض النّـاس ممّن تخلّف عن هـذه الغـزوة أنّهم أصابهم أسف وحزن عظيم ، وحرقـة ونـدم ، على مـا فـاتهم من الحضور معكم ، فالحمـد لله على عزّ الإسلام وعزّ أهلـه ، وعلى إهـانـة الكفر وذُلّ أهله .

فاقبل وصيّة من يحب لكم الخير ، ويسأل الله تعالى أن يأجرك في مصيبتك بموت أخيك ، تلقّاه الله بـالمغفرة والرّحمـة ، آمين ، ونسـألـه تعالى أن يسعدك ، وأن يسعد المسلمين بك » .

☆ ☆ ☆

الرّسالةُ الثّانية :

« الحمد لله وحده ، وصلى الله على سيّدنـا محمّـد وعلى آلـه وصحبـه وسلّم تسليماً .

من عبـد الله رضوان بن عبـد الله ، إلى أمير المسلمين أبي العبّـاس أحمد ابن ساداتنا وموالينا الشُّرفاء ، نصره الله ، سلام عليكم ورحمـة الله تعالى وبركاته .

وبعد : أعاننا الله وإياكم على رعاية ودائعه ، وحفظ ماأودعنا من شرائعه ، وثبّتنا على ذلك حتّى نلقاه وهو عنا راضٍ .

فإنّي أحمد إليكم الله الّذي لاإله إلا هو ، ومرادي ـ إن شاء الله ـ أن أبثَّ لكم مافي باطني من الاحتراق ، فقد قال القائل :

فلا بُدَّ من شكوى إلى ذوي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتفجَّع

وهي كيف يمشي هؤلاء الكفَّار كلُّهم إلى بلادهم ، وإخواننا ـ المسلمين ـ بأيديهم في غاية العذاب والإهانة ؟ ونحن قادرون على ألاَّ يبقى واحد منهم في أيديهم ، وفداؤهم فرض علينا من بيت المال وأموال النَّاس كلِّهم حتّى لا يبقى واحد ، ففتح الله في هذا الفتح العظيم ، ومنَّ الله تعالى علينا به ، وحصل في أيدي المسلمين رؤوس الكفر ، ألا وهم يمشون لبلادهم بالشَّيء التَّافه الّذي لا حاجة للإسلام به ، ويبقى إخواننا وأخواتنا بأيديهم ، كأن هذا الأمر سهل ، فلا ـ والله ـ ليس الأمر بسهل ، وإنّما يحاسب على ذلك من قدر عليه ولم يفعله ، كالرَّاعي والرَّعيَّة ، فإن كان هذا حرصاً على المال ، فإن المال بالمغرب كثير ، وقبل أن كانت هذه الغنيمة أكنتم محتاجين إليه ؟ بل كنتم ـ والحمد لله ـ أغنياء عنه .

فالله الله في فكِّ الأسارى بقدر الجهد ، ألم تعلم أن قسيس النَّصارى يشتري كبار النَّصارى بالشّيء القليل ، ويحملهم إلى بلادهم

والنَّاس ساكتون لا يعبؤون بذلك ، إنَّا لله وإنا إليه راجعون .

وسمعت أن ابن الدَّك يقدر يفدي به[1] ما لا يحصى ، فالله الله ، ثم الله الله في هذا الأمر ، وأنت أقدر النَّاس عليه ، والأمر الأكيد هو فكُّ الأسارى لله عز وجل : ﴿ وَما تفعلوا من خير يعلمه الله ﴾[2] .

وقد بلغنا ـ والحمد لله ـ اهتمامكم بأمور الدِّين ، زادكم الله خيراً ، وأعانكم عليه .

والله الله في الفقيه سيدي سعيد السعيدي ، تعينونه وتأمرونه بما طلبنا منكم ، والسَّلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته » .

نشرهما في « دعوة الحق »
الأستاذ : محمَّد المنوني

---

(١) بماله ، هكذا وردت في الوثيقة .

(٢) البقرة : ١٩٧/٢

من الوثائق النَّادرة

لمعركة وادي المخازن

قدَّم هذه الوثيقة الأستاذ الدكتور عبد الكريم كريم ، في « دعوة الحق » ص ٣٣ :

استقبل المولى أحمد المنصور بضواحي فاس ، خلال شهر شعبان ٩٨٦ هـ / تشرين الأوَّل (أكتوبر) ١٥٧٨ م وفداً إسبانياً ـ برتغالياً ، حمل إليه خطاباً من (فيليب الثَّاني) ملك إسبانية يتعلَّق بجثَّة (دون سِبَستيان) ملك البرتغال .

وفي اليوم الثَّاني من رمضان عام ٩٨٦ هـ أجاب المنصور ملك إسبانية بالرِّسالة التَّالية الَّتي تحدِّد الملامح الجديدة للعلاقات المغربيَّة ـ الإسبانيَّة غداة معركة وادي المخازن .

وقد تمَّ العثور على هذه الرِّسالة ضمن المسودَّة المخطوطة لترجمان الملك الإسباني الخاص (أللونسو القشتالي Allonso del Castillo) ، الَّتي توجد اليوم بالمكتبة الوطنيَّة بمدريد (رقم ٢٥٧) ، وفيما يلي نصُّها الكامل :

استيعاب كتاب بعثة أمير المسلمين أبي العباس أحمد الحسني الشّريف إلى مقام سلطاننا الملك المعظّم السّلطان دون فيليب نصره الله ، جواباً لكتابه العزيز الذي بعثه في تصريح جثّة السّلطان المرحوم دون سِبَستيان نصُّه :

بعد التّسمية والتّصلية .

من عبد الله المتوكّل على الله ، المعتمد في جميع أُموره على كبير حوله أمير المؤمنين أبي العباس أحمد المنصور ابن أمير المؤمنين المفتقر إلى عفوه وفضله أبي عبد الله محمد الشّيخ الحسني ، أحسن الله إليه ، وأفاض نعمه ظاهرة وباطنة عليه ، إلى السّلطان المعظم القدر والشأن ، ذي الأصالة العريقة ، والمناقب الحسان ، ملك مِلّة المسيح وكبيرها ، ومجيل[1] قداح سياستها ومدبرها ، قطب تلك الدّائرة ، والمختص بمزاياها الفاخرة السلطان دون فيليب ابن السّلاطين الكبار المعروفين بجلالة المقدار ، أدام الله لك الخيرات ، ووجّه إليك وفود السّعادة ، وركائب المسرّات .

أما بعد : حمداً لله مستحق الحمد ومستوجبه ، مولي الفضل ومكسبه ، والصّلاة والسّلام على نبينا محمد وكافة الرُّسل والأنبياء ،

---

(١) مدير ، (اللسان جول) .

بدور الهدى ، وصفوة الخلق في الأرض وفي السَّماء ، فإنَّا كتبناه إليكم ، كتب الله لنا ولكم خيراً يتجدَّد ، وتوفيقاً يشتد إبرامه ويتأكد من محلتنا السَّعيدة ، ومناخ رجال عساكرنا العديدة ، ولا ناشئ بفضل الله إلاَّ التيسير والإقبال والسَّعد الصَّافي السِّربال[1] . وإنَّه وصل إلينا خطابك الجليل ، وكتابك المنطوي على كلِّ جميل ، فتناولنا بيد الاعتناء بوصوله ، وحبسنا ركائبنا للتَّعليم والاستقصاء على أبوابه وفصوله ، فألفينا من بدائع المعاني ونفائسها ماعبَّر عن نباهة ذلك المقام السُّلطاني أي تعبير ، وعطَّر بطيب شذاه أنفاس العنبر والعبير ، وفي ضمن توجيهكم الرَّغبة في تصريح جثَّة السُّلطان دون سبستيان ، واقتنائنا بذلك عندكم من صروح الخير ما يفوق كلَّ بنيان ، فأهلاً بها من غرض ماأوسع له عندنا ساعة الإسعاف والإسعاد فلرغبتكم بهذا المقام العُلْوي محل الرَّحب والإكرام ، وأغراضكم فيه محمولة من الاهتبال على الغريب والسَّنام ، ولو توجهت فيما هو أكثر للقيت وجه القبول مشرق الجبين والتيسير يمدّ إليها اليد المطلوب باليمين ، وقد جرت الأقدار على وفق مشيئة الله وإرادته بذلك الواقع ، وليس لما يقدره سبحانه ويقضيه من مدافع ، وكان المبتغى أن يتخلَّص إلينا من تلك الأزمات ، وأن لاتعدو عليه فيها عوادي المحلات ، ليظهر حسن صنيعنا فيه ، ويتعرَّف من تحفينا به مانرجو أن يطيه بقوادم

---

(١) السِّربال : القميص والدَّرع ، وقيل : كلُّ مالبس فهو سربال (اللِّسان : سربل) .

الذكر الجميل وخوافيه ، لكن صدمته أمواج الفتنـة مجهولاً ، وجـدلتـه حملتها بين حصى الموت مقتولاً ، وبعـد حين رفع إلينـا من طـاف على صرعى المعركة خبره ، وأنَّه أوقع عليه بين تلك الجثَّاث نظره ، فأمرنـا في السَّاعة بحمله وإيداعه صون مستودع ، ووكلنا به من يحبو في رعيه وحفظه ، ويضع أخـذاً بـالفضل الَّتي لا تحيـد الملوك عن الأخـذ بـه ، والسَّعي على مذهبه ، وإذ وصل كتابك فيه فها نحن سرحناه مكرماً ، ورفعنا لائتام غرضك فيه علماً ، ولو بعثت فيه وهو حيٌّ لنشرنـا لـك من حسن الصُّنع إسعاداً وإسعافاً ما لا يعتذره بحول الله طي ، ولعملنـا على تلك الشَّاكلـة فككنـا عن خـديمكم جوان دي شلبـا قيود الأسر ، وعاملناه مراعاة لمقامكم بـالتَّسهيل واليسر ، فـإذا تمكنت المحبَّـة ليسَّرت للأغراض كلَّ حجـة ، فلا يمنعكم من أغراض بهـذا المقـام العُلْوي مـانـع فنـور الاعتنـاء بهـا في أفـق التكرمـة سـاطـع ، والله يـديم لكم الخير ، ويعرفكم اليُمْن والسَّعادة .

في الثَّاني من رمضـان المعظَّم ، عـام سـتـة وثمـانين وتسع مئـة من الهجرة ، عرفنـا الله خيره ، وخير مـا بعـده ، وكتب في التَّـاريـخ للسُّلطـان المعظَّم القـدر والشـأن المتبـوِّئ من الأصـالـة أرفـع مكان السُّلطان دون فيليب عرَّفه الله عوارف الخيرات .

المكتبة الوطنية بمدريد ـ مخطوط رقم ٢٥٧

☆ ☆ ☆

وَثيقتان هامَّتان

عن معركة وادي المخازن

يقول الأستاذ محمَّد بن تاويت ، تحت هذا العنوان في (دعوة الحقِّ) ، ص ٤٧ :

الوثيقتان صدرتا عن رجلين كانا ضمن الرِّجال الَّذين شاهدوا الموقعة الحاسمة ، الَّتي وضعت حدّاً لغرور البرتغال الَّذي دفع بهم نحو الثُّغور المغربيَّة ، وصاروا بذلك يحاصرون المغرب في داخله ، ولا يدعون له متنفَّساً نحو البلاد الواقعة خلف البحار ، لدرجة أن بلغت بهم وقاحتهم بالاعتراض على الدُّول الَّتي كانت تقترب من ثغورنا ، أو تحاول أن تتعامل مع الدَّولة الوطَّاسيَّة أوَّلاً ، ثمَّ الدَّولة السَّعديَّة عند تأسيسها .

ويضيف الأستاذ محمد بن تاويت ، عن نتائج معركة وادي المخازن :

وبالجملة ، فقد تضافرت الشَّجاعة المغربيَّة ، مع النُّظم الحربيَّة التُّركيَّة ، وتحقَّقت بذلك الانتصارات الباهرة ، الَّتي ولدت المغرب

من جديد ، مغرباً قوياً في نفسه ، محترماً لدى غيره ، متفتّحاً على العالم الخارجي ، رشيداً في ديبلوماسيّته ، لدرجة أن أصبحت الملكة إليزابث[1] عاهلة بريطانية ، تعرض على الملك المنصور السَّعدي ، اشتراك الجيش المغربي مع الجيش البريطاني في الاستيلاء على أمريكة ، من بعد ما عرضت عليه هذه المشاركة في غزو إسبانية نفسها ..

لقد تميَّزت هذه المعركة ، بأنَّها لم تكن في الواقع تواجه الجيوش البرتغاليَّة وحدها ، بل كانت تواجه حرباً صليبيَّة شارك فيها العالم الكاثوليكي ، بصفة خاصَّة ، والمسيحي بصفة عامَّة ، إذ كان فيها حتَّى المسيحيُّون غير الكاثوليك ، كما نجد في وثيقة لصاحبها الإنكليزي وليم بلين ..

خرج المغرب منها بانتصار جديد ، وبملك جديد ، وخرجت البرتغال بهزيمة صاعقة ، وبخسران ملك ، ومملكة فيما بعد ، لم تعد إليها سيادتها وعزتها إلى الأبد .

وبعد فهذه إحدى الوثيقتَيْن ، تمثّل الجانب المغربي ، وقد صدرت عن الطبيب الخاص للملك السَّعدي ، وهي عبارة عن رسالة

---

(١) إليزابيث الأولى Elisabith : [١٥٣٣ ـ ١٦٠٣ م] ملكة إنكلترة ، هي ابنة هنري الثامن من زوجته آن بولين .

وجَّه بها هذا الطبيب إلى أخيه ، بالإسبانية ، هذه ترجمتها :

فاس ١٦ أغسطس ـ آب ـ سنة ١٥٧٨ :

سيدي :

بعد أن ابتعدنا عن « الكيرا » ـ وادي القاهرة ، الَّتي كانت تتجمَّع فيها جيوش مَرَّاكُش وسوس آنذاك ـ خرجنا من هناك في الغد متَّجهين إلى « شيشوة » ـ على بعد نحو ٥٠ كيلو متراً من مَرَّاكُش ـ تحفزنا أنباء وردت على الملك ، من مولاي أحمد حفظه الله ، وفي اليوم الثالث ، أقمنا معسكرنا ، على مقربة من نهر « تينسفت » ـ قريباً من مراكش ببضعة كيلو مترات ـ ودخل الملك مراكش ، فقضينا بها ليلتين ، ثمَّ جعلنا نسير من تينسفت ، فقطعنا مراحل ، حتى وصلنا إلى « ماوراء » ـ ربما يكون المقصود مدينة عمبر ـ البعيدة عن آزمور ببضعة كيلو مترات كذلك ، في « تامستا » ، فأمر الملك بإقامة خيمته داخل القصبة ، مصطحباً بعضاً منّا معه ، وكان تنفيذ العمل يتطلَّب إنهاء بناء القصبة وإسكان النَّاس حولها ، وإقامة التَّحصينات بها ، ولذلك أمر بأن يؤتى من مرَّاكش بجميع المعلمين ، من البنَّائين بالطُّوب والحجر ، والنَّجارين والحدَّادين ، مسلمين ونصارى .

ولما كان الله يريد شيئاً آخر ، ليس للنَّاس به حسبان ، فقد

حدث في اليوم الثَّالث من وصولنا أن طعم الملك شيئاً من السَّمك ، وشربَ الماء كثيراً ، كما تناول قليلاً من البطيخ ، فأتخمه ذلك ، وغلبه القيء الَّذي أعقبته حمّى ومغص معوي ، وكان هذا الوعك يعاوده من حين لآخر ، فيما قبل ، مما شغل بالنا كثيراً ، واستفحل أمر المرض الَّذي كان يعتريه .. ومع هذا فقد تابعنا المسير ، وانتهينا إلى مدينة « سلا » ، وهناك تحسَّنت صحة الملك ، ولما غادرناها بعد ثلاثة أيَّام ، جعلنا نسير طول اليوم ، إلى أن انتهينا إلى المعمورة ، وفي هذه الأثناء كنا قد التقينا مع مولاي أحمد بجوار سلا ، وفي ذلك اليوم امتطى الملك صهوة جواده ، وجاء الأهالي للقائه ، وكان سكان المغرب في صحبة أخيه ، وهم مسرورون مستبشرون جداً ، فيه اجتمع فرسان كثيرون لم يشاهد مثلهم ، فيما قبل ، بهذه المملكة ، حتَّى إنَّ عددهم قد بلغ قرابة سبعة آلاف فارس ، وفيهم رجال المكاحل .

ثمَّ اتجهنا إلى المبيت ، فلما وصل إليه الملك ، أحسَّ بحمّى صاحبها قيء شديد ، فتأسَّفت لذلك كثيراً ، وكان قد تسبب في هذا شدة الحرارة الَّتي تعرض لها ، وإكثاره من شرب الماء بها ، مع ما كان يجهد نفسه به من انطلاقه بفرسه ، ولم تكن صحَّته تسمح له بذلك ، ثم رأى من الأنسب أن يشرب الماء البارد ، ويولج أصابعه في جوفه ليتقيأ ، ويمتنع عن الأكل بعد هذا ، وكنت أبكي وأصيح أمامه

- لأصرفه عن هذا العمل - حتّى صرت كالمجنون ، ولكن ذلك لم يفدني شيئاً فيما قصدته .

وفي اليوم الثالث ، أُصيب الملك بفواق شديد ، ثمّ بارتعاش في يديه ، وخاصّة في اليمنى منها ، مع ثقل في اللّسان ، جعلني أفهم في الحين المصيبة الّتي ستنزل به ، فقابلت المولى أحمد وأخبرته بحقيقة ماحدث ، فأمرني أن أكتم الخبر ، وجعل من ذلك الحين ، يهتم اهتماماً خاصّاً بتدبير شؤون المملكة ، ثم اشتدّ العطش على الملك ، لدرجة أن صار لا يطفئ ظمأه ماء ، حتّى ولو سُقِيَ أنهار الدُّنيا كلها لما كانت ترويه ، ولم يكن لي ولا للقائد علي ، ولا للمعلم « غييرمون » - كيوم بيررد أحد الوكلاء الفرنسيين المتجوّلين - شغل ، إلا أن نحميه من شرب الماء الكثير ، وسرنا على هذا النحو إلى أن كان اليوم السّابع ، حيث شاء الله ، بفضل وصفتَيْن جعلتهما له ، أن ذهب ذلك العطش ، وعادت إليه شهيّة الأكل ، وفتح عينيه ، وخفَّ لسانه ، وانتظم قوله ، كما خفَّت عنه تلك الرَّعشة شيئاً .

فلما كان اليوم التّالي ، فاتح أغسطس ، جاءنا خبر بشروع ملك البرتغال في المسير نحونا ، خارجاً من مدينة « أصيلا » ، فرفعنا معسكرنا وأقمناه إلى جانب القصر ، الّذي توجهنا إليه في اليوم الثالث منه ، فجاءتنا أخبار مفادها أن العدو يريد اجتيازاً للقنطرة الّتي

كانت مقامة على النّهر المسمى بوادي المخازن ، فتقدّم المولى أحمد ، وظلّ الملك في السّاقة ، إلى أن ضرب المعسكر ، وكان يظن أن العدو سيقدم على القتال بنفسه في مساء ذلك اليوم ، فأمر بتنظيم رماة المكاحل ، وطلب ـ سامحه الله ـ الفَرَس ، وهو يكاد يلفظ نَفَسَه ، فامتطى صهوته ضدّ إرادتي ، وتقدّم فترك خلفه جميع الفرسان الّذين قدموا معه ، ليشرف بنفسه على تنظيم الرُّماة ، ولاحظت لما كان راكباً على فرسه ، أن قد أصابه إغماء ، فاقتربت منه متوسّلاً إليه ، أن ينزل إلى فراشه ، حيث يمكنه أن يستمر في إصدار أوامره ، فلم يكتف بالامتناع من ذلك ، بل أخرج سيفه ، وجعل يلوح به فوق رؤوس أصحابه ، ليتركوه وشأنه .

وفي هذا الوقت ، جاء رسول من مولاي أحمد يخبر بأن الأعداء قد استقروا في موقعهم ، ويمكن صاحب الجلالة أن يذهب إلى مخدعه ليستريح في المعسكر ، ويتناول طعامه ، فنزل عن فرسه ، واستلقى على فراشه ، واتّجهوا ونحن معهم إلى الخيام .

أمّا مولاي أحمد فقد ظلّ في الميدان ، ولم يغادره ، في كوكبة من الفرسان الّذين كانوا نحو مئة فقط ، وهم على مقربة من الأعداء ، وكان على جانب آخر من بني مليك ، وبني سفيان ، وبعض العرب من الجبل ـ يعني جبالة ـ ، فلما اجتمع رجالنا في ذلك المساء ، أرسل

أخا القائد عبد النور Abdenu ، ومولاي المنصور لانتلي ، وولد السَّيِّد أحمد بن داودي ، وبعض القواد ، نحوهم .

وشرع الأعداء في ذلك المساء يرفعون معسكرهم ، متظاهرين بالمسيرة نحونا ، فخرج الملك حينئذ من مخدعه ، وامتدّ على محفّته ، وجعلنا نسير خارج الخيام ، ثم عاد النَّصارى إلى الاستكانة من جديد ، فتجمعنا بخيامنا ، وتكفَّل مولاي أحمد في تلك اللَّيلة بأن يقوم بالحراسة ، مع فئة من رجال المغرب .

وفي اليوم التَّالي ، أي الخميس صباحاً ـ بل كان يوم الاثنين صباحاً ـ رابع أغسطس ، استيقظ الملك على حالة جيدة ، فطلب منّي قبل الشُّروق أن أناوله فطوره ، فأفطر ، وشرب مرقاً به فُتاة الخبز ، مع ثلاثة فصوص من البيض الطَّري ، ثم حضر مولاي أحمد ليتفاوض معه في أمر المعركة ، وبعد ذلك ودَّعه بارتياح عظيم ، وحينما حلَّت السَّاعة العاشرة ، طلب الملك الأكل ، فأمرت بأن يأتوه بدجاجة مشويَّة ، وأخرى مطبوخة ، وبطعام وخبز سميد ، فأكل قليلاً من كلّ ، وشرب شيئاً من ماء القرفة ، قبل الشُّروع في الأكل .

وبعد انتهائه منه جاءت الأخبار بأن البرتغاليين قد شرعوا في المسير نحونا ، فطلب الملك لباسه الحربي المزركش ، ووضع على هامته عمامة صغيرة ، فوقها وسام به ثلاثة أحجار كريمة ـ على نمط

ملوك التُّرك آنذاك ـ وبخنجر من النوع نفسه ، كان كذلك مرصّعاً باليواقيت والأحجار الكريمة .

وهكذا تحلَّى الملك بما كان يتحلَّى به أيام الأعياد ، ووضع في أصابعه خواتمه الكبيرة ، المرصَّعة بالجواهر القيِّمة ، وامتطى صهوة فرسه ، على الرَّغم من إرادتي ، وتوجهنا معه جميعاً إلى ميدان القتال .

وكان رجالنا على أتمِّ نظام ، وكان النَّصارى راجلين ، قد قدموا من أبعد الأماكن ، وكان مولاي أحمد في فرسان المغرب على اليمين ، مع آلاف من رماة فاس ، وكان على يسارنا قواد مَرَّاكُش ، وأولاد مطا Ulendeta والرَّحامنة ، وأناس آخرون كثيرون ، كانوا حسب عادتهم وموطنهم لا يتمكَّنون من التَّحرك بسرعة .

ثمَّ تقابلت الفئتان في سهم هائل مهيب ، لم أرَ له مثيلاً ، إذ لم تكن هناك حجرة ولا شجرة ولا حائل ما ، فلما كانا على طلقة مكحلة ، أمر الملك بإطلاق نار المدافع الَّتي كانت عدتها أربع وعشرين قطعةً جيدة ، ولما أُطلقت المدافع طلقاتها مرَّتين ، ألحقت بالنَّصارى أضراراً ، كما ظهر لي ، وكما علمنا فيما بعد ، فأجاب عليها النَّصارى بمدافعهم ، قتل بها فَرسان ، ورجل من حاملي علم الملك ، ولم يستغلوا هذا ، كما كان النَّاس يتوقعون منهم .

وفي هذه الأثناء اقترب الجمعان من بعضهما ، واحتدم القتال من

الجـانبين ، وجعـل فرسـاننـا الَّــذين هم رجــال الشَّرف يهجمـون على النَّصارى عن يميننا وشمالنا ، واشتد هجومهم علينا بشراسـة ، لـدرجـة أن تراجـع بعض رجـالنـا من المشـاة والفرســان ، وصــاروا وراء علم الملك ، يبحثون عن النجاة في ذلك المكان ، الَّذي كنا به ، واعتقـدت أننا كنا سوف نهلك ، لولا أن مشيئة الله كانت غير ذلك .

وأعود إلى مقصودنا فأقول ، إن الملك لما رأى رجـالـه ينهزمون ، صوَّب نظراته هنا وهناك ، فوجد نفسه وحيداً لا وجود للفرسـان من خلفه ، لكونهم تفرَّقوا عنه خوفاً من الرِّماح ، فغضب غضباً شـديـداً ، واستـوى على مهـامـز فرسـه ، وامتشـق سيفـه ، ثمَّ ارتعش بعـد ذلـك ارتعاشاً شديداً ، اصطكت له أسنانه ، ففقد حينئذ الوعي فالحيـاة في الوقت نفسه ، وكان ذلـك المنظر جـديراً بـالاعتبـار ، ونزل أمر الله ، فأسرعت إليه في الحين ، فوجدته قد لفظ الحيـاة ، فوضعتـه على محفَّـة أُعدت على عجل ، وتظاهرت بأنَّه قد أُغمي عليه ، فصرت أسقيه المـاء ـ متظـاهراً ـ ثم غطيت وجهـه ، حتَّى لا يحس النَّـاس بتلـك الكارثـة العظمى ، وفي هذا الوقت ، كان عن يميننا مولاي أحمـد ، مجَّـده الله ، كما سبق أن ذكرت ، فحمل حملة قويَّة على النَّصـارى أنزل بهم خسـائر فادحة ، وفعل ذلك مرَّتين ، أو ثلاث مرَّات ، عنـدمـا كانوا يهـاجمون فيتراجعون بحملاته الموفَّقة ، وبذلـك ضيَّق عليهم الخنـاق ، واشتـدت قبضتـه عليهم ، وكان بـالشَّجـاعـة الَّتي جعلتـه ينفرد عن رجـالــه في

نضاله ، فرأيته وحده مرَّتين ليس معه إلاَّ بضعة رجال .

ثمَّ عاد القائد إلى وعيه ـ لعلَّه القائد إبراهيم السُّفياني ، الَّذي كان معه ـ لما رأى رماتنا بالبنادق منقسمين ، وخاصَّة علم « برثبنين » ـ هكذا في النَّص Bezenin ، وفي التَّرجمة الإنكليزيَّة Bessanine ـ الَّذي جاء في ذلك اليوم مع القائد محمد زرقون من العرائش ، فحمل على النَّصارى حملة قويَّة ، شارك فيها الفرسان الَّذين تقصعت رماحهم ، فاستؤنفت المعركة بعد ذلك ، وطوَّق فيها الفرسان النَّصارى ، من كلِّ جانب ، ولم يتركوهم إلاَّ بعد أن أفنوهم وسحقوهم .

والشَّيء الذي ساعد على هذا الانتصار ، أن موت الملك لم يعلم به أحد ، وقد سرنا كأنَّا معه ، والأعلام تتقدمنا ، والحرَّاس والخفراء وغيرهم من خلفنا ، ونحن وحدنا الَّذين كنا على علم بوفاته ، أي أنا وولد محمد زرقون ومسلم ، وكنا نسير في الأمام لنشعرهم بأن ذلك بأمر من الملك ، ثمَّ إني كنت أنزل عن فرسي كلَّ لحظة ، متظاهراً بالتكلُّم معه ، بحيث أن الجند كانوا يأتون بالنَّصارى الأسرى ، رجالاً ونساء إلى حيث كان الملك ، فكنا نقول لهم : إنَّه نائم ، وننهاهم عن أن يوقظوه .

ولما شاهد النَّصارى هزيمتهم ، جعلوا يقيمون الحواجز ، مستخدمين فيها العربات الَّتي أتوا بها ، فقاتلوا خلفها حتى قُتِلوا ، أو

وقعوا في الأسر ، وكان عـددهم ثلاثين ألفـاً ، لم ينج منهم إلا عشرون ، أو خمسة وعشرون من فرسان طنجة ، الَّذين ولوا الأدبـار نحو أصيلا ، وكذلك كان مولاي محمد ـ المسلوخ ـ قـد فرَّ مع عشرة من الفرسـان لما شـاهـد الهـزيمـة ، وكان من بينهم أولاد أبي تـودة ، وحمـو بن معيزة وغيرهم ، فـأرادوا اجتيـاز النَّهر ، وكان الوقت وقت المـدِّ فيـه ، فغرق مولاي محمد ـ المسلوخ ـ وأفلت فرسـه ، ومـات ملـك البرتغـال متـأثِّراً بجرحين أُصيب بهما ، في رأســه ، وآخر في ذراعــه ، فنقلت جثَّته في صندوق وضع فيه جير[1] ، وحمل إلى القصر الكبير .

وكان سرُّ الله عظيماً ، فقد هلك في ظرف ساعـة ، ثلاثـة ملوك ، كان اثنـان منهم عظيمين ، وكانت المعجـزة الكبرى في أن ملكاً ميتـاً ، غلب ملك البرتغال في لحظة قصيرة ، حتَّى ليظن أن ذلـك الأمر كان من فعل السِّحر .

إن سـادة البرتغــال ، من ابن دوق « براكنزا » Braganca ـ ورد ذكر هـذا في تقرير وليم بلين المـذكور ، كرجـل من الشَّخصيـات الَّتي عينت لتكون في معيَّة الملك ـ إلى حامل التُّرس ، قد قتلوا جميعـاً ، أو وقعوا أسرى ، وهو أمر لم يره أحد من النَّاس ، ولا سمع بـه ، وبمعجزة

---

(١) الجير : الكلس .

منه قبض الله ملك البرتغال وسلّمه إلى رجال ملك المغرب ، بعدما فارق الحياة .

أمّا عدد القتلى حسبما شاهدت بنفسي ، فيمكن أن يبلغ خمسة عشر ألفاً ، وأمّا الأسرى فلا أستطيع أن أُقدِّر عددهم ، لكنه ما كان عربي واحد ، لم يأتِ بأسير أو أكثر ، والعَمَلة المسلمون لم يعد لهم شغل يكسبون منه المال ، فإن مدينة فاس ـ مثلاً ـ كانت مليئة بالخدم ، من أسرى البرتغال ، ولم يكن هناك رجل بالدَّولة ، ليس له أسيران أو ثلاثة في خدمته من النَّصارى ، كما أن الفلاحين وجدوا في هؤلاء الأسرى ، من يكفيهم مهمة القيام على حقولهم ، وكان ثمن الواحد منهم يتراوح بين ثلاثين إلى مئة ، أو مئة وخمسين موزونة ـ نحو ثلاثين درهماً ـ أمّا قيمة الافتكاك ، فكانت تتراوح بين ثلاث مئة ، وبين خمس مئة موزونة ، وكان الملك مولاي أحمد يستخدم من يجده من هؤلاء الأسرى .

وكان عرب أحواز أصيلا وتطوان والشَّاون يأتون بعد إلى فاس ، مصحوبين بأسراهم النَّصارى ـ حيث كانت فاس أهم سوق لبيعهم ـ فأصبحت هذه المملكة غنية بالذَّهب والفضَّة ، والأسلحة المختلفة الأنواع ، والبغال والخيول والثيران ـ مما غنم من البرتغال ـ بحيث لم يعد من الرُّماة من يريد أن يخدم غيره ـ استغناء عنهم بما لديه ـ ولا أصبح عبد أقل ثراء من سادته في هذا .

ولا أستطيع أن أُقدر لك يا سيدي ، مقدار ذلك من الأسارى والغنيمة ، لأن من لم يره ، لا يستطيع أن يصدِّقه .

ولما انتهت المعركة ، جاء مولاي أحمد ليأخذ الأعلام ، وقد علم بأن الملك قد مات ، فنبهني إلى عدم إفشاء ذلك إلى أحد ، ثمَّ توجهنا نحو مخدعنا ، وبقينا طيلة ساعتين ، قبل أن تغيب الشَّمس ، حيث حملنا الملك الميِّت إلى الخيام ، وكان القائد بو جمعة قد جاء هناك ، فنادى علي في النَّاس ، وأمرني بالذَّهاب لأرى إذا ما كان أخوه - الملك - قادراً على التَّحدث معه ، فدخلت وبقيت برهة ثم عدت إليه ، فقلت : إن الملك قد أكل فنام ، وكان سيدي مَحمد بن عيسى - بفتح الميم - كاتباً لمولاي عبد المالك - كما في نزهة الحادي وغيره - في هذا الوقت يكتب البيعة لمولاي أحمد ، فلما أنهى كتابتها ، وجه مولاي أحمد في طلب الشُّرفاء ، وقواد الفرسان والرُّماة جميعاً ، وخطب فيهم بنفسه ، قائلاً لهم : إن أخاه قد مات ميتة القائد المغوار ، وإنَّهم يعلمون أنَّه كان في حياته قد حارب عدوَّه مولاي محمد - المسلوخ - وأنَّهم إن بايعوه وأصبح ملكاً عليهم ، فإنَّه سيسير حسبما يشيرون بصوابه ، فردَّ جميعهم بالإصفاق « نصرك الله » ، ثم قبَّلوا يده ، وأقسموا يمين البيعة بأنَّه ملك عليهم ، فامتطى صهوة فرسه ، وجاب المنادي ينادي في الميدان ، ويصيح : رحم الله مولاي عبد الملك ، ونصر مولاي أحمد .

ولما انتهى من هذا ، توجَّه إلى مخدعه ، فأصدر الأوامر بدفن أخيه ، فكان ذلك على هذا الشَّكل : أنه دفن بلباسه ونعليه - شهيداً - بعد أن حمل جنازته كبار فقهاء فاس ، وسيدي محمد بن عيسى ، كما حملها قضاة فاس الكبار ، وجميع الشُّرفاء .

وكان القوم يقرعون الطُّبول ويزمرون بالمزامير ، تتقدَّمهم ثلاثة أعلام ملكية ، ومئة من الحرَّاس الرُّماة المتطين أفراسهم ، ومعهم عبيد القصر الغلمان ، وقد خرجوا في تلك اللَّيلة إلى فاس ، حيث دفنوه إلى جانب أخيه مولاي الحرّان - الَّذي كان قد سقط قتيلاً أيَّام والده في دفاعه مع الأتراك عن تلمسان - ووضعوه في قبر على فراشه ، وأعلامه عند رأسه ، وقد تأثَّر النَّاس لوفاته ، وعدُّوه قديساً .

أمَّا مولاي أحمد نصره الله ، فقد دخل مدينة فاس يوم سادس عشر من أغسطس ، وقد أخذ ينظِّم شؤون مملكته ، جعلها الله على ما يرومه ، وأظن أنَّه سيبقى هنا - بفاس - إلى أن يحلّ رمضان ، وقد استدعى مولاي داود - بن المأمون أخيه - ليجعله عاملاً على مكناس ، أمَّا ولده محمد الشيخ فسيتركه - والياً - على فاس ، ويؤكِّد أنَّه سيبقى معه ولد القائد علي بن شيقرة ، وقد أعطى قصر فاس البالي للقائد علي كنوس .

هذا مافعل لحدّ السّاعة ، وسأُعلمك بما قد يتجدَّد من الأُمور بعد[1] .

☆ ☆ ☆

أمّا الوثيقة الثّانية ، فكانت عن الجانب البرتغالي ، كتبها إنكليزي كان كما يبدو مراسلاً في الحملة البرتغاليَّة ، وربما كان قاطناً بالمغرب ، وبعد وصفه النُّظم والعادات ببلاد المغرب ، يقول :

والآن ، لقد حدثت حادثة مؤلمة ، لأعظم معركة دامية خيضت في المغرب ، يوم رابع أغسطس من سنة ١٥٧٨ م ، فقد كان هناك على البلاد المغربيَّة ملك يسمّى مولاي محمَّد الشَّيخ ، الَّذي كان له أولاد عديدون ، من أزواج عديدات ومحظيات غيرهن ، لأنَّه هنالك ببلاد المغرب ، يمكن الجمع بين أزواج حسبما يريدون .

لقد حدث ذات يوم أن الملك كان ذاهباً إلى مراكش عاصمة دولته ، يريد قطراً آخر يسمَّى سوس ، فلما كان في أثناء الطَّريق بما كان يسمَّى « بيبون » ـ Bibon ـ على الجادّة بين مراكش وتارودانت ،

---

(١) انتهت الوثيقة الأولى ، وما بين العارضتين ، ليس منها ، بل تعليقاً أو توضيحاً من الأستاذ محمد بن تاويت . ويقول الأستاذ ابن تاويت : « فهذه الوثيقة من هذا الطبيب (اليهودي) الَّذي كان كما يبدو من الموريسكيين المهاجرين إلى المغرب ، كتبها باللُّغة الإسبانيَّة الَّتي كان عبد الملك السَّعدي يحسنها إلى جانب غيرها .. » ، ص ٥٢ « دعوة الحق » .

فاغتيل بوساطة رجل ـ يريد الأتراك الإنكشاريّة من جيشه ـ حينئذ أعلنوا البيعة لأحد أبنائه ، كان يُسمّى مولاي عبد الله ، وقد أمر هذا أحد نبلاء البلاد ، يُدْعى القائد علي ـ بن بو بكر الأزقي الحاحي ، كان حاجباً لمحمد الشّيخ ، وحاكماً لمراكش ـ بأن يتولّى قتل أحد عشر من إخوة هذا الملك ـ فقتلوا ـ إلاّ أنّ اثنين منهم فرّا ناجيَيْن بأنفسهما إلى تركية ـ وهما عبد الملك وعبد المؤمن ـ فتمرنا هناك على الأعمال الحربيّة ، يخوضان المعارك والحروب .

أمّا أخوه المولى أحمد فقد بقي بالمغرب ، ولم يؤبه له لما كان عليه من خمول ، ولم تكن له شوكة تخشى ، وكان محبوباً جداً من أخيه الملك الشّرير ، ولهذا ترعرع في بحبوحة وترف من العيش ، وكان في معظم أيامه مقصوداً من جميع البلاد .

وحيث إن القاتل القاسي ما كان ليفلت ، فنال حتماً جزاءه في يوم من الأيام ، فقد كان هذا القائد الوزير الوحيد للملك الّذي أشار عليه بالتدبير الخبيث ، قد جرى عليه ماجرى من قبل ، في إخوة هذا الملك ـ الغاشم من القتل ـ وقد كان الملك القاسي مولاي عبد الله له إلى جانب أُخريات عديدات من النِّساء زوجة سوداء من الإماء ـ اسمها الخيزران أو الجوهرة كما في نزهة الحادي ـ فكان له منها ابن يدعى مولاي الشّريف ـ الّذي لُقّب بالمسلوخ فيما بعد ـ وكان بسبب

ما كانت عليه أُمه من سواد ، يدعى غالباً بالملك الأسود ، فعهد إليه أبوه عبد الله بالملك بعد وفاته ، إذ جعله ولي عهده ، وكان وارثه الوحيد ـ آنذاك وإلاّ فإنَّه كان له أخ تقدَّم اسمه الناصر في الوثيقة الأولى ـ .

أمَّا مولاي أحمد فإنَّه بعد وفاة أخيه مولاي عبد الله فرَّ خوفاً من طغيان ابن أخيه الأسود الَّذي خلفه ، لا يلوي على شيء ، مستصحباً معه ثروته كلَّها ومتاعه إلى الجزائر : البلاد التَّابعة لتركية ، حيث بقي بها في أحسن حال وأمان .

وبينما كان مولاي الشَّريف يضع على هامته التَّاج ، متمتِّعاً بالهدوء والطمأنينة ، إذ به يصبح ملكاً طاغياً قاسياً ، مما جعل شعبه يكرهه ، ويتذمَّر من قساوته وشدَّته ، ثمَّ في النهاية لجّوا في وجهه بصريح القول معلنين : إن الابن من غير أُمٍّ حرَّة لا يمكن أن يحكمهم ، وطيلة هذه المدَّة كان عمُّه مولاي أحمد مقيماً في الجزائر موفَّقاً في استمالة الشَّعب بوساطة التَّدابير الدِّعائيَّة الَّتي كانت تسود أنحاء المملكة ، وقد أرسل إلى أخيه مولاي عبد الملك ـ مقيماً في تركية يعمل ـ مع الأتراك ، يرغِّبه في أن يأتي على رأس تعبئة عسكريَّة ، ليقود الحملة بكل ما يستطيع حينما يعود إلى المغرب ، حيث إنَّه متأكِّد من كونه سيجد به أنصاراً له وأعواناً ، يمكنونه من انتزاع التاج لنفسه في سهولة ويُسْر .

وعلى هذا الأمل الْحَسَن ، فإنَّ عبد الملك استطـاع أن يحصل من عاهل التُّرك على جيش قوامه عشرة آلاف رجل من الأتراك ، مكافأة له على خدماته الجليلة الَّتي قدمها له ـ وكانت هـذه الفرقـة من الجيش المرابط بالجزائر ـ فدخل بهم المغرب ، واستقبل من أتبـاعـه ومواليـه ، بكل اغتبـاط وانشراح ، وبكل نجـدة وحميَّـة ، وسرعـان مـا تمكن من سطوته بفضل تلك الثَّروة الَّتي كانت لأخيه مولاي أحمـد ، ولم يـدَّخر وسعاً لإسعافه بها ، ونصرة مسعاه الَّذي دعاه إليه .

وهكذا ، فإن مولاي الشَّريف ابن أخيـه الأسود ، أدرك أنَّ عمَّـه قاصد إليه ، فبقي بين قوَّاته العظيمة لتعبئـة مقـاومـة ضـده ، غير أنَّـه وإن كان حتى ذلـك الحين يتمتَّع بقوتهـا الَّتي قهر بهـا عـدَّة أعـداء لـه ، وكان متـوافراً على جيش عظيم قـوامـه عشرة أضعـاف مـا لعمِّـه من جيش ، لم تسعفه شجاعته تجـاه ـ عمـه مولاي ـ عبـد الملـك ، كما كان يدرك أن إرادة الشَّعب العامَّة ـ منصرفة عنه إلى عمِّه ـ .

وبالجملة ، فقد قـام مولاي عبـد الملـك بهمـة التَّحريض عليـه ، فأثار النَّاس على الشَّريف المذكور ، وتمكَّن منـه بـأن هزمـه إلى أعـالي الجبال من البلاد ، وانتهى إلى أن ظفر بتاج الملك ، فاستمر طيلة المدَّة قابضاً على زمام الحكم والسُّلطان ، بفضل حبِّ الشَّعب إيـاه جـدّاً ، إذ كان رجـلاً في منتهى النَّشـاط ، هـائـلاً في سرعـة الحركـة ، مـاهراً في

خوض الحروب ، وكان منذ يفاعته دائماً في تجوُّل مستمر واتصال بالنَّاس ، كما أنَّه أقام العدالة بالبلاد ، وأقرَّ الأمن بها ، وكان سموحاً جداً مع المسيحيين ، وعلى الخصوص مع شعبنا الإنكليزي .

وحينما انهزم الملك الأسود إلى شواهق الجبال ، وكان قد حمل معه جلّ ذخائر البلاد ، كان يومياً يقلق الأمن الَّذي أصبحت تتمتَّع به البلاد ، تحت حكم عمِّه مولاي عبد الملك ، ذلك الملك الَّذي لم يكن ينام عن تحقيق غايته ، والوصول إلى المدى الأقصى منها متذرِّعاً بجميع الوسائل ، متيقِّظاً حذراً ، مما عسى أن يقع من ابن أخيه الملك الأسود من ضرر أو أذى ، فلم يترك مطاردته إلى أن استطاع أخيراً أن يهزمه إلى أقاصي البلاد وتخوم المملكة ، فأصبح - عندئذ - مضطراً إلى طلب العون من ملك البرتغال ، الَّذي كان له بعض المراكز في تلك البلاد - المغربيَّة - وبما أن ملك البرتغال كان شاباً يافعاً شهماً ، في نحو الثلاث والعشرين من العمر ، ربما كان قد اندفع بدافع الطَّمع والرَّغبة في الكسب الخادع واثقاً من النَّصر ، غير مراعٍ ولا مراقب لما يحل به من تهلكة ، فقد وعد الشَّريف المذكور بتحقيق ما أمله فيه - ونصرته إلى النِّهاية - .

وعلى هذا فقد عبّأ رجالاً بلغ تعدادهم أربعين ألفاً ، فيهم من المشاة ستة آلاف برتغالي ، وأربعة آلاف من فرسانهم ، وعشرة آلاف

من مشاة الإسبان ونبلاء الألمان والطليـان ، ثمَّ عشرة آلاف أُخرى من الوصفاء والخدم وأصحاب العلوفة ونحوهم ، ممن كانوا في صحبـة الجيش من الأتباع .

وبهذه القوات ، عسكر الملك بين جماعـة من نبلائـه عـديـدين ، فأقلع معهم من بلاده في اليوم الرَّابع عشر من شهر يُلْيَـة سنـة ١٥٧٨ ، وعرج بأُسطوله الكامل العُدَّة على البلاد الإسبانيَّة ، حيث رسا بمدينـة قـادس ، واستراح بهـا ثمـانيـة أيَّـام بتمامهـا ، ليتزوَّد عسكره منهـا بكلِّ مايحتاج (كما يظن بعضهم) وربما كان في حاجة إلى إنجاز بعض مآربه المزعومة .

وفي اليوم الثَّاني والعشرين من شهر يُلْيَة المـذكور ، جمع رجـالـه كلَّهم ، وفصل مقلعـاً عن قـادس بجميع تعبئتـه ، متَّجهـاً نحـو مـدينـة أُخرى واقعة على السَّـاحل المغربي المقـابل تـدعى « طنجـة » ، حيث تقابل مع الملك الأسود ، الَّذي كان في صحبته خمس مئـة من رجـالـه المغاربة الفرسان .

وبعدما أقام بطنجة مدَّة وجيزة ، انتقل منهـا إلى أصيلا الَّتي هي بعض ما كان لملك البرتغال من المدن المغربيَّة هنـاك ، وفي اليوم الأوَّل الَّذي كان التاسع والعشرين من شهر يُلْيَة ، غـادرهـا ملـك البرتغـال متقـدِّمـاً نحو الأمـام ، مع جميع قواتـه ، فقطع بهم فرسخـاً آخر ، وهو

ثلاثة أميال من أميالنا الإنكليزيَّة ، ثمَّ أقام خيامه عند مكان يدعى « لواد الحلو » .

ثمَّ في اليوم التَّالي تقدَّم فرسخاً آخر ، فعسكر هناكَ يومين كاملين ، اكتشف فيهما عند قمة ربوة عالية جدّاً ، وجود فرقة من فرسان المغرب كان قوامها أربع مئة شخص لا أكثر ، وكان سبب إتيانها كما ظنّ تماماً ، لمجرد معاينة معسكر ملك البرتغال ، فيكون ملكهم مطَّلعاً على القوَّة الَّتي يتوفَّر عليها هذا ـ الملك ـ في الواقع ، وكانت ماثلة في عظمة مدهشة ، لا يمكن أن يتصوَّرها العقل ، ثمَّ عادوا أدراجهم بعد ظهورهم في سرعة فائقة ، دون أن يقوموا بمناوشة معهم أو القيام بأيِّ قتال لهم البتَّة .

وفي اليوم الثالث ، تقدَّم ملك البرتغال ، فسار ثلاثة فراسخ نحو الأمام ، دون أن يصادف أيَّ مقاومة ، فأقام حينئذ معسكره في أمن وأمان ، قريباً من نهر يدعى وادي الرِّيصانة ـ ورد اسمه محرَّفاً في الأصل كويكسينا ـ فبقي هناك طيلة اللَّيلة .

وفي اليوم الرَّابع ، تقدَّم فراسخ أخرى إلى الأمام ، فوصل إلى مدينة مغربية تدعى « القصر الكبير » ، حاجزاً بينهما النَّهر الكبير ، وادي المخازن ، وكان جسره آنذاك في قوَّة ومناعة ، محروساً بألفي مغربي ، فأدرك الملك البرتغالي أنَّه مستحيل أن يسلك هذا السَّبيل

دون بذل أعظم مخاطرة ، وكان عليه أن يحتفظ برجاله إلى الفرصة التّالية ، الّتي يمكن أن تكون في صالحه وفي تحقيق مسعاه الحالي ، وعلى ذلك تابع سيره محاذياً الشّاطئ ، باحثاً عن مسلك آخر له ، يكون أكثر ملاءمة لقصده ، وفي النّهاية وصل إلى جدول صغير ، حيث عسكر هناك بجميع قوّاته ومدفعيّته ومؤونته دون أن يستهدف أي خطر أو صعوبة مطلقاً ، فقضوا هناك جميع اليوم ، منهمكين في العمل الّذي استغرق تلك اللّيلة كلّها .

وفي اليوم التّالي ، استدعى ملك البرتغال جميع حصفائه ، وقوّاده المحنكين بقصد الاستشارة معهم واستنصاحهم فيما إذا كان الأحسن له أن يتّجه بجميع قوّاته نحو العرائش ، حيث هي مدينة صامتة ، وإن كان بها نحو سبعة آلاف بيت ، فإنّها مع هذا ضعيفة غير قادرة على مواجهة أي قتال ، ولن تكون قادرة على الصّمود الطّويل في المقاومة ، أو بالأحرى عليه أن يتقدّم نحو الأمام في طريقه إلى القصر الكبير المذكور ، فكان هذا موضوع حوار طويل بينهم ، كلٌّ رجل ينحاز إلى رغبته وهواه .

وبعدما عَبَّر كلٌّ بخصوصه عن وجهة نظره في هذا ، حيث كان البعض يرى هذا المسلك ، وآخر يرى غيره ، انتهت المفاوضة بالمصادقة على الاحتفاظ بالطّريق نحو القصر الكبير ، فكان العمل على ما اتفق عليه عموماً .

ولكنه لم يسر غير قليل ، حتّى اكتشف مجيء مولاي عبد الملك بحشده زاحفاً نحوه ، بقوّة عظيمة من الرِّجال ، كانت تقدر بنحو سبعين ألفاً من الفرسان ، وأربعين ألفاً من المشاة ، وكان منهم نحو عشرين ألفاً من الرُّماة الفرسان ، وعشرة آلاف من مشاة المدفعية . إلى جانب التّابعين الآخرين للعسكر لم أسمع بعددهم ، ولا يمكن أن يُقَدَّم عنهم تقريرٌ حقيقي ، ولكن بسبب أن اليوم قضي في هدوء بين القوتين ، فإنّها مااستطاعتا الإتيان بأي عمل ، وقد اقتربت الفرقتين كلتاهما من الأُخرى ، وعسكرتا هناك تلك اللّيلة ، على مرأى كل منهما للأُخرى .

وفي اليوم التّالي ، وكان رابع أغسطس لسنة ١٥٧٨ ، قسّم ملك البرتغال جيشه إلى أربعة كراديس ، وعيّن للقائد « دون دويرطي دي منيسيس » Don Duert de Mennesses ، وكان للقائد الأعلى للقوات قيادة المقدّمة Vantgard ، أما الكردوس الثّاني ، فإنَّ ملك البرتغال تولّى بنفسه قيادته ، وكان على الميمنة الشّريف الأسود مع فرسانه ، وكان على الميسرة « دوق فيرو » Duke De Verou الابن البكر لدوق بركنسي ـ السّابق ذكره ـ مع أربعة فياصل .

وقد قام الملك ، مولاي عبد الملك بالتّرتيب نفسه في عسكره ، فكان قد أعدَّ كلَّ شيء هكذا في الفريقين كليهما ، وكان الملكان كلاهما قد جعلا أنفسهما موضع المخاطرة بها ، فيما عسى أن يقع من أحداث ،

وقد تجرَّدا للقتال ، فوجَّه الملك مولاي عبد الملك أوَّلاً هجوماً عنيفاً على فرسان البرتغال المقاتلة ، ولكنهم دافعوا عن أنفسهم بشجاعة ، وانتهوا أخيراً إلى اضطرار رجال مولاي عبد الملك إلى التأخر بعد فقدان كثير منهم ، ولكن مولاي « ملوك » مع هذا لم يهن أبداً ، وقذف برجاله ثانية في أحسن ترتيب ، لخوض المعركة من جديد ، هاجماً بعنف وشدَّة على فرسان ملك البرتغال ، فجعلهم ينهزمون إلى قلب الميدان ، ثم إن فرسان البرتغال وهم غير قادرين على جمع شتاتهم مرَّة أخرى في نظام أحسن ، هجموا على المسلمين الهجوم العنيف نفسه ، حيث إنَّهم قتلوا عدداً عظيماً منهم ، فأعاد هؤلاء الكرَّة على فرسان البرتغال ، ولم يهنوا ، وأكرهوهم على الاختلاط بمشاتهم ، ثمَّ هجم الفرسان البرتغال على المغاربة من جديد ، ولكن كانوا قد قتل أحسن رجالهم من قبل ، ولم يكن لهم غوث جديد ليسدُّوا به خلتهم ، ولهذا فقد فرُّوا عن زملائهم مرتاعين هلعين ، ضاربين في بلاد غريبة عليهم ، وهم بين أعدائهم يقتلونهم ، وقوتهم تفوقهم ، فما استطاعوا أن يفعلوا أحسن من هذا الفرار مطلقاً ، وظلَّ أولئك المغاربة على ثباتهم في مراكزهم ، كاسرين قوى أعدائهم ، مبدِّدين نظام الفرسان البرتغال ، مشتِّتين شملهم ، قاهرين صناديدهم ، يقتلونهم ويأسرونهم في جمع من قوَّتهم ، فلم ينج من ذلك إلاَّ نحو ثمانين أو مئة رجل على الأكثر ، استطاعوا الفرار والنجاة بأنفسهم إلى الأسطول ، وقتل في

جميع رجال المعركة ، ثلاثة آلاف ألماني ، وسبع مئة طليـاني ، وألفـان من الإسبـان كان منهم « دون ألنسو داكيلير » Don Alonso Dagolar فارس قرطبة .

ويظن أن الملوك الثلاثـة قـد قتلـوا في هـذه المعركـة الأخيرة ، وفيهم الشَّريف الملك الأسود .

وقـد أخبر أن رأس ملــك البرتغــال قــد بقي في القصر الكبير ، بصـدد تسليمـه على فـديـة يطلبهـا المغـاربـة بمـدينتي سبتــة وأصيـلا المذكورة .

وعرض لفـداء ابن « دون بـوكانسـا » عشرة آلاف دوكـة ، ولكن رفض ذلك .

وقد فقد ملك البرتغـال في هـذه المعركـة اثنتين وعشرين قطعـة من المدفعيَّة ، وسبع مئة مركبـة ببغـالهـا وثيرانهـا ، إلى جـانب أشيـاء أخرى قيمتها عظيمة .

وقتل من المغاربة نحو أربعين ألفـاً ، أو خمسين ألفـاً ، مع آخـرين يقال إن الملك من بينهم .

وقـد اختـار البرتغـال ملكاً عليهم القسِّيس الَّـذي هـو عمّ للملــك المقتول .

☆ ☆ ☆

القَصْرُ الكَبِيرُ

جاء في « وصف إفريقيَّة[1] ٣٠٣/١ » :

القصر الكبير : مـدينـة كبيرة أُسِّست في عهـد المنصور ملـك مَرَّاكُش وخليفتها بأمره ، وتروى الواقعة التَّالية كحادث تاريخي صحيح : فوجئ هـذا الملـك ذات يوم وهو يصطـاد في البادية بمطر شديد ، وريح عاتية ، وظلام حالك ، حتَّى افتقد حرسه ، وتوقَّف في مكان لا يـدري أين هـو ، واضطر إلى أن يقضي اللَّيـل بـالعراء ، وبينما هو كذلك لا يتحرَّك خوفاً من أن يغوص في المستنقعات ، رأى نوراً ، ووجد أمامه لحسن حظِّه صياداً تعوَّد أن يذهب لاصطياد سمك

(١) لأبي علي الحسن بن محمد الوزان [نحو ٨٨٨ ـ نحو ٩٥٧ هـ = نحو ١٤٨٣ ـ نحو ١٥٥٠ م] الغرناطي أصلاً ، الفاسي داراً ، والمعروف عند الإفرنج باسم ليون الإفريقي ، جغرافي من العلماء ، رحَّالة ، مؤرخ أندلسي ، حضر ـ بعد رحلة حجِّه إلى الحجاز ـ حروباً بين البرتغال والشَّريف محمد السَّعدي القائم بأمر الله ، وأسره قرصان من الإيطاليين قرب جزيرة جربا ، ولما عرفوه أنَّه من أهل العلم قدَّموه هديَّة إلى البابا ليون العاشر ومعه كتبه وأوراق رحلة قام بها في إفريقية حتى تمبكتو ، فأدخله في خاصَّته وسمَّاه (جان ليون) ، وكان صاحب الترجمة يكتبها بالعربية يوحنَّى الأسد ، وأُشيع أنَّه تنصَّر ، وما من دليل يؤكد ذلك ، تعلَّم الإيطالية واللاتينيَّة ، وكان يحسن الإسبانية والعبرية ، [الأعلام ٢١٧/٢] .

الإنقليس (النون) من هـذه المستنقعـات ، فقـال لـه المنصـور : هـل تستطيع أن تدلَّني على مخيم الملك ؟ فـأجـابـه الصَّيـاد : إنَّ المخيم يبعـد عشرة أميال من هناك ، ولما طلب منه الملك أن يصحبه إليه قال له : لو كنت أنت المنصور نفسـه لمـا قـدتـك إليـه لأنني أخشى أن تغرق في المستنقع ، فقال الملـك : ومـاذا يهمـك من حيـاة المنصور ؟ فـأجـابـه الصياد : أوه ، يبدو لي أن الملك جدير بـالمحبَّـة ، فقـال الملـك : لقـد وصلك منه إذن إحسـان كبير ! فردَّ الصَّيـاد : أي إحسـان أكبر يمكن أن ينـالـه إنسـان من ملـك أكثر من العـدل والرِّفق الكامـل والعطف الَّذي يبرهن عنه في حكمه للرَّعيَّة ؟! وبفضل هذا أستطيع أنـا الصَّيـاد المسكين أن أتمتَّـع بفقري في سـلام مـع زوجتي وأُسرتي الصَّغيرة ، أخرج من كوخي في منتصف اللَّيل وأعود إليـه متى شئت ، فـلا أجـد أحـداً يسيء إليَّ أقل إساءة في هذا الوادي وهذه الأمكنة الخالية ، وأنت أيُّها النَّبيل ، أرجـوك أن تقضي هـذه اللَّيلـة في منزلي ، وغـداً في الصَّبـاح أكون في خدمتك ؛ لأصحبك إلى حيث تريد .

قَبِلَ الملك الـدَّعوة ، وذهب مع الرَّجل الطَّيِّب إلى كوخـه ، ولمـا وصلا ، رفع الصَّيَّاد السرج عن فرس الملـك وقـدَّم لـه علفـاً كثيراً ، ثم طبخ سمك الإنقليس (نوناً) ، وقدَّم للملك الَّذي كان في هذه الأثنـاء قد جفَّف ثيابه بقدر الإمكان قرب نار طيِّبة متوهجة ، ولما كان الملـك لا يستطيع أكل السَّمك ، فإنَّه طلب من الصَّياد إن كان عنده قليل من

لحم ، فأجابه الرَّجل الفقير : إن ثروتي يا سيدي تتكوَّن من عنزة وَجَدْيها الَّذي ما يزال رضيعاً ، إلا أنني أعتقد أن من حسن حظ الحيوان أن يقدَّم لحمه تشريفاً لمثلك ، وإذا لم يخدعني ظاهرك فيبدو أنك أمير كبير ، ولم يلبث أن ذبح الجدي ، وطلب من زوجه أن تعدَّه شواء ، فتعشَّى الملك ، وأخذ قسطاً من الرَّاحة إلى الصَّباح ، ثم انطلق من الكوخ مبكِّراً مع مضيفه اللَّطيف كدليل ، وما كادا يخرجان من المستنقع حتَّى لقيا جماعة من الفرسان والصَّيادين مذعورين ، وهم يبحثون عن الملك ، ويطلقون صرخات النِّداء ، وقد فرحوا جميعاً برؤية الملك ، والتفت المنصور إلى الصَّياد وعرَّفه بنفسه ، وقال له إنَّه سيتذكَّر لطفه دائماً ، وفي أثناء توقُّف الملك بتلك النَّاحية أمر ببناء قصور مهمة جميلة ، وعدد من المنازل ، ثمَّ أهداها عند انصرافه إلى الصياد مكافأة له ، فالتمس منه الصَّياد أن يسود هذه القصور والدُّور الشَّيء الَّذي سيدل أكثر على حلمه وكرمه ، فكان ذلك ، وأصبح الصَّياد أميراً على المدينة الجديدة الصَّغيرة الَّتي أخذت تكبر يوماً عن يوم حتَّى أصبحت في وقت قصير تسع أربع مئة كانون بسبب خصوبة البلاد ، وقد تعوَّد الملك أن يقضي الصَّيف كلَّه في هذه النَّاحية ، فكان ذلك أيضاً سبباً في ازدهار المدينة .

المَصَادرُ وَالمراجِعُ

اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سَنيِّ الآثار ، محمد بن القاسم بن عبد الملك الأنصاري السَّبتي ، الرَّباط ، ١٩٨٣ .

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، أبو العباس أحمد بن خالد النَّاصري السَّلاوي ، دار الكتاب - الدار البيضاء ، ١٩٥٥ .

تاريخ الدَّولة العليَّة العثمانيَّة ، محمد فريد المحامي ، تحقيق د . إحسان حقِّي ، دار النَّفائس ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين ، يوسف إشباخ ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م .

تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين ، أحمد زين الدِّين المعبري المليباري ، مؤسَّسة الوفاء ، بيروت ، ١٩٨٥ .

دعوة الحق ، السَّنة ١٩ ، العدد ٨ رمضان ١٣٩٨ هـ / آب ١٩٥٨ م ، الرَّباط ، وزارة الأوقاف .

دائرة المعارف الإسلاميَّة ، دار المعرفة ، بيروت - لبنان .

الذَّخيرة السَّنية في تاريخ الدَّولة المرينيَّة ، دار الكتب الوطنية (الظاهريَّة) ، دمشق (م - ٦٠٩) .

روضة النِّسرين في دولة بني مرين ، دار الكتب الوطنية (الظاهريَّة) ، دمشق (و - ٩١٧٣) .

في طلب التَّوابل ، سونيا ي . هاو ، مشروع ١٠٠٠ كتاب رقم ٩٨ ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، ١٩٥٧ .

معجم البلدان ، ياقوت الْحَمَوي ـ دار صادر بيروت .
معجم الأنساب والأُسرات الحاكمة في التّاريخ الإسلامي ، زامباور، مطبعة جامعة فؤاد الأوّل، ١٩٥١ .
مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ، محمد عبد الله عنان، الطبعة الرابعة، ١٣٨٢ هـ/ ١٩٦٢ م، مؤسسة الخانجي، القاهرة .
وصف إفريقيّة ، الحسن بن محمد الوزان الفاسي، المعروف بليون الإفريقي، دار الغرب الإسلامي ط ٢ .
وفيات الأعيان ، ابن خلكان، دار صادر ـ بيروت، ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م .

المُحْتَوَى

☆ ☆ ☆
☆ ☆
☆